

سَعِيدُ النُّورِ سَيِّدِي

رَجُلُ الْإِيمَانِ
فِي مِحْنَةِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ

أَبِي بَرَاهِيمَ الدَّبَّاعِ

سَعِيدُ النُّورِ سَيِّدِي
فِي مَجْمَعَةِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ



الإهداء

إلى كل من أمسك قلماً
وخطَّ في صفحة المعرفة الإيمانية حرفاً

سَعِيدُ النُّورِيِّ

رجس مبین

فِي مِحْنَةِ الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ

أَدَبِيَّةٌ لِمَنْ هَمَّ بِالذَّبْحِ

رقم الايداع

المقدمة

عقل إيمانيّ لمّاح، وفكر قرآني متماسك صلب ليس فيه منفذ لنافذ. ولا ثغرة لمترصّد وقلم جوّال صوّال، وما من ميدان من ميادين الإسلام والايّمان إلّا وقد ترك فيه أثراً ووضّع عليه شارّة... .

ذلك هو "النورسي" رحمه الله، ورضي عنه وأرضاه، إنسان صعب المرتقى. من أين حاولت الإرتقاء إليه، والوصول إلى قِمَمَه، بلعّ منك التعب مبلغاً. وأقعدك حيث وصلت لاهثاً متعباً، وكيفما احتلت للإمساك بتلابيب فكره، والتشبّث بأصول عقله أحسست - بعد لأيٍ - أنك لم تمسك من ذلك إلا النزر اليسير، وفاتك الكثير الوفير.

ومهما انتهجت من نهج، وسلكت من درب، ووضعت من قواعد وأصول في دراسة "النورسي" والكتابة في حياته وسيرته وفكره، فستجد - في خاتمة المطاف - أن "دائرة معارف النورسي" وحياته الإيمانية الحافلة الخصبة، تستعصي على أي نوع من أنواع الاكاديمية، وتناى عن أي شكل من أشكال المنهجية المتعارف عليها بين كتّاب السير، لان أحداً لا يستطيع أن يحصر "البحر" في قنوات الاقلام، أو يحبس "المحيط" بين دفتي كتاب.

فأنت إزاء مفكر مبدع خصب في إبداعاته، غزير في جدّة معانيه، وسيع في ثرائه الوجداني وعطائه الروحي. ومبلغ علمي أنه لم يسبقه أحد - في العصر الحديث - فيما تناوله من "القضايا الإيمانية الكبرى" ولا سيما الغيبية

منها كـ"الآخرة" والحشر، والثواب والعقاب، والجنة والنار" فقد أوتي من سعة التصور والخيال وقوة المنطق والبرهان، في مناقشة هذه الغيبات التي حار فيها فحول العلماء وفضاحل المفكرين ما يثير الدهشة ويبعث على الدهول، وهو يضع "غيبات ما وراء العقل" بين يديك بكل يسر وسهولة ويوقفها تحت بصر عقلك، وعين قلبك، حتى لتكاد تلمسها لمس اليد، وتراها رأي العين، فلا يسع معها أي معاند أو مكابر -إن كان منصفاً- إلاّ الإيمان بما، والتصديق بوقوعها. كما أخبرت بما الأديان وبشرّ بما الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ورغم أن "النورسي" كرس معظم سني عمره من أجل "إنقاذ الإيمان" والبرهنة على صحة معطياته وتعميق أصوله وجذوره في نفوس الناس، ولم يجد متسعاً من الوقت - وهو يتصدى لهذا العمل العظيم - لممارسة أي نشاط آخر يمكن أن يوخز حساسيات "السلطة" ويثير شكوكها وحفيظتها، إلاّ أنه مع ذلك لم يسلم من الأذى والمراقبة والاضطهاد والنفي والتشريد وحتى السجن، مما جعل حياته سلسلة طويلة من المآسي والآلام والأحزان. هذا الكتاب هو محاولة متواضعة في تصوير هذه "النفس العظيمة" التي كانت تقنت بالآلام، وتحيا بالأحزان، ولكنها -مع عمق مأساتها- لم تقتر ولم تضعف ولم تقف -لحظة واحدة- عن نتاجها الفكري وعطائها الروحي. وقد هزّنتي هذه البطولة النادرة الغدة، وصعقتني بوارق "الإيمان" وتوجهه خلال الأحداث الضخمة والمثيرة التي شهدتها "تركيا" المسلمة في أواخر خلافة بني عثمان وبدايات "العهد الجديد" المناهض للدين والإيمان.

فوقفت عند هذه المواقف والمنعطفات في حياة الرجل وراعتني شجاعته
وحكمته في مواجهة طوفان الإلحاد والطغيان الذي بدأت أمواجه العاوية
تطغى على صوت الإسلام وصراخ الإيمان.

ولم أهتم بتواريخ الأيام والسنين ولم أستعرض مجريات أحداثها إلا بالقدر
الذي يلقي الضوء على حركة الإيمان في وجدان "النورسي" ومسارات تقدمه
على الصعبدین الفكري والعملي في صفوف المسلمين المضطهدين. وقد
التزمتُ بروح أفكاره وجوهر مفاهيمه ولم أنقص منها أو أزيد عليها ضمن
التصرف المعقول والمطلوب الذي تقتضيه العبارة العربية وأساليبها البيانية.
واستعرضت في فصل "قراءات في فكر النورسي" بعضاً من أفكاره وآرائه
في أخطر المسائل الفكرية والحضارية التي يمكن أن تواجه "العصر الإيماني
الجديد" الذي بشرّ النورسي بقدومه، كما ألمحْتُ إلى بعض من أفكاره في
ثنايا الفصول الأخرى التي سبقت هذا الفصل.

وأود أن أشير إلى أنني قد رجعت في تأليف هذا الكتاب إلى بعض
المصادر والترجمات العربية، ولعلّ من أهمها كتاب "بديع الزمان سعيد
النورسي - نظرة عامة عن حياته وآثاره" والترجمات العربية التي ما زال يوالي
نشرها الأستاذ "إحسان قاسم الصالحي" في مجلة التربية الإسلامية ببغداد،
واطلعت كذلك على ما كتبه الاستاذان الفاضلان "محمد سعيد رمضان
البوطي" و "عاصم الحسيني" عن النورسي. وأفدت أيضاً من بعض المصادر
التركية فائدة كبيرة رغم قصر باعي في هذه اللغة، واستعنت ببعض الأساتذة

الملمين بالتركية في ترجمة النصوص ومقابلتها مع النص العربي، وأخذت بملاحظاتهم، جزاهم الله عني خير الجزاء.

وبعد:

فلا أزعم أني قد استوفيت الكمال فيما كتبت، وأتيت بما لا يطيق أحد أن يأتي بأحسن منه بعدي، ولكنّ هذا الكتاب - مهما قيل في قصوره - أرجو مخلصا - أن يفتح عيون العالم العربي وسمعه على "النورسي" هذا الكنز الإيماني العظيم، الذي ما زال مجهولا - للأسف الشديد - عند عموم القراء والمتقنين العرب.

وأنا على ثقة بأن التعرف على "النورسي" وأفكاره سيغني المكتبة الإسلامية العربية ويثريها ويمدها بأعظم وأجمل لآئى الفكر الإيماني، وأروع جواهر العقل الإسلامي، والتي ما زالت - هذه المكتبة - مفتقرة إليه.

اللهم يا من علّمتَ بالقلم، علّمتنا ما لا نعلم، وأجر على أيدينا ما يقرنا إليك، وينفعنا يوم القدوم عليك... آمين...

وصلّى اللهم على نبينا محمد خير من علّم من علمك وأعظم من هدى وأرشد إليك.

أديب إبراهيم الدباغ

توطئة

انظر وشاهد واختبر ثم أكتب:

جولة استطلاعية ومشاهدات ميدانية في

رياض النور

ارفع ذكر النور، وانصر أهل النور، وأرشد النور إلى النور

(السهر وردي)

من بعيد جئناكم.. من وراء الفيافي والقفار أتيناكم.. بلهب أرواحنا
وصحارى قلوبنا قدمنا إليكم.. بنفوسنا الجذباء، وأفئدتنا القفراء، أطللنا
عليكم.. بالعطش الرهيب في وجداننا، والجوع المخيف في ضمائرنا حططنا
رحلنا بينكم، ونزلنا في واحاتكم، وأقمنا خيام أشواقنا، وخبئات أحلامنا في
ربوعكم..

على كواهلنا -أيما مضيئا- نحمل غربتنا.. وفي أعماقنا -أيما سرنا-
نطوي سرّ وحدتنا وتفردنا.. نسري مع ركبنا أشواقنا، ونمضي مع قوافل
أحزاننا.. وفي جزع ملتاغ نفتش في هذا العالم عن رفاق الإيمان، وجند
القرآن، وتلامذة النور، المتلفعين بالسناء، المضئيين في الديجور.. ونلقاكم
-ياأخوتي- في رياضكم، وتكتحل عيوننا بمراكم في منازلكم، وتعتنق
الأرواح والقلوب ويتواصل الحنين، وتجيئ الأشواق، وتتناغم الأشجان، ويمتد
نسب الغربة بيننا وبينكم فيجمعنا على الحب والمواساة والعزاء..

عندكم - يا اخوتي- وجدنا عظمة أصولنا الإيمانية وهي تشع بالنضارة والري.. وفي رياضكم وقفنا على منابت جذورنا القرآنية وهي تموج بالخصب وتسيح بالعتاء.. ومن بين أيديكم كنا نتناول أبحار المعاني والأفكار في شديهِ وذهول وكأننا لم نكن نعرف الإيمان قبل أن نرتشف معانيه من كؤوسكم، ولم نكن نعرف القرآن قبل أن نسمعه من بين شفاهكم.. فلا والله لا أدري ما أقول: أنتم بالإيمان تحيون..؟ أم يحيا الإيمان بكم..؟ وهل بالقرآن تتحركون..؟ أم يتحرك القرآن بكم..؟ فمد عرفناكم عرفنا كيف يتحول الإيمان في نفس المؤمن إلى يقظة وجدان.. وصحوة فكر.. وهزة ضمير.. ولهفة مشتاق.. وياقة أحاسيس متفتحة على أعاني الحياة وفرح الوجود، وجمال الكون الأنوس...

خذونا - يا اخوتي- إلى مراتع قلوبكم الوامضة بالأمل إيماض الفجر على سدف الظلام، فقد غمرتنا ظلمات اليأس، وتغشتنا دياجي البؤس السقيم.. وأوقفونا في رياض الروح وعند ينابيع الإيمان المتفجرة من قلب أستاذكم الجليل، ودعونا نعلُ منها، وننهل من مناهلها، فقد أضنانا العطش وأشاع في أرواحنا اليبس والجفاف.

ونمضي والهين، نفتش بينكم عن ذلك السيف المهيب في حزنه، العظيم في غمده، الشامخ في جرحه، المتألق رغم تراب الدهور وغبار القرون، والمتوهج رغم صداد الأزمان وظلمات النسيان، هذا السيف الحمدي الذي تورق في ظلاله جنان المسلم وتزهو تحت نضله فراديس المؤمن، فإذا بنا نلقاه قائما في قلوبكم الباسلة، ونلمحه بارقا في أرواحكم الشجاعة، مجلواً من كل

صدأ صقيلاً مرهفاً.. وكأنك يارسول الله ق قد هتفت بهم اليوم من وراء

الغيب: "من يأخذ سيفي بحقه..؟"

وتجيبك جموعهم: "نحن يارسول الله".

ونجثوا خاشعين تحت ظلال سيفك يارسول الله، وبكل وَهْنَا وحبنا نلثم
بوارق نوره، ونعانق لمعان ضوءه ونحن نحتضن طلبة النور، ونضم جموعهم إلى
صدورنا..

ومع أولاد النور نُحِث الخُطى في جذل الروح النشوان، وفرح القلب
المترقب للهيف، فإذا بنا نقف على مشارف ذلك الصرح الفكري العتيد
الذي شيده عملاق الإيمان وخادم القرآن: الأستاذ "النورسي"، من مقالع
قلبه، وحنايا روحه وفلذات فكره ووجدانه، فنشدُهُ لهذا البناء الشامخ
الصاعد في سماوات الإيمان والمتأللئ بأنوار القرآن، ونتهمس فيما بيننا:
أي عبقرى هذا الرجل؟! وأي شخصية خصبة يمتلك؟! وأي نظرات نافذة
غوارة في قلب المعاني والأفكار هي التي تسعفه في تناوله لكبرى قضايا
الإيمان ولأخفى خفايا الغيب، حتى لكأن الغيب عنده حضور دائم، وشهود
مستمر..

وأي عقل ذكي لماح هو عقله الذي يقيد كل فكرة سارحة، ويعقل كل
خيال جامح، ويقرب كل معنى بعيد، حتى لنكاد نلمسه لمس اليد، ونعيشه
عيش الحقيقة والواقع...؟!

هذا إنسان قل في الناس مثله، ومفكر ندر في المفكرين نظيره، وصاحب
رسالة أوقف لها نفسه، وكرس من أجلها وجوده حتى استعذب العذاب،

واستمر المر، واستروح الجراح، واستقوى بالآلام على صروف الدهر
ومصائب الأيام، وتدرع بالأحزان وهو يشق طريقه في حومة الأهوال، فما
طرفت عينه ولا وجف قلبه، ولا ارتاعت نفسه، ولم يكب به قلم، أو يعثر به
لسان.

ففي كل كلمة من كلماته قوة من قوى الفكر الهادي الرصين، ونبضة
حارة دافقة من نبضات القلب العميد الذي شقّه الوجد، وأضناه الشوق.
فأنت في حيرة من أمر كلامه، أهو من فيض قلبه؟ أو من فيض فكره؟ أم
هو مزيج من الفيضين معاً؟

ولا تدري أهو قلبه الذي يفكر، حتى لتحس بأفكاره -رغم ما فيها من
دقة وعمق وأصالة- وهي تستقر في قلبك قبل أن يتناولها عقلك بالتحليل
والمناقشة، وتشعر وكأن عقله في سجود دائم وصلاة مقيمة، وكأنه الروح في
تسايبحه والقلب في تبتله وأشواقه، وتتساءل عن سر ذلك فيما يتحدث أو
يكتب، فلا تجد جواب ما تسأل عنه إلاّ في "القرآن الكريم" الذي يعلو
بأسلوبه فوق كل شأن إنساني. ولكن صحبة "القرآن" وإدامة النظر فيه،
وإدمان تلاوته، يجعل الإنسان محلّ تجلياته العلوية، وموضع إمداداته
القدسية، فإذا تكلم هذا الإنسان، أو كتب، استعار قلب القرآن وفكره معاً
فيما يتناول من شؤون فكر الانسان أو قلبه.

لقد وقف "النورسي" على أسباب الشقاء البشري، ووقع على أصول
الداء الذي غدا يأكل النفس البشرية وينخرها من الداخل، وأدرك سر
عذاب القلب الإنساني وبؤسه في غياب "الإيمان" عنه، وحمود جذوته،
وانطفاء توهجه، وهاله هذا الإنحراف المخيف للإنسان من قمة إهتماماته

السامية التي كانت تشغل ذهنه في أسرار "الحياة والموت والمآل والمصير" إلى مهاوي الاهتمامات الهابطة التي تغرق الإنسان وتعمي بصيرته بسيل من الجزئيات الحياتية اليومية المكرورة، وبالأفكار الأفيونية المريضة التي تشدُّ إلى عجلة هذه المادية الجافية الجاسية، والتي قلما يستطيع الإنفكك عنها، والتحرر منها إلاَّ بمجذبة قوية من جذبات الإيمان، وهزة من هزاته التي توقظ النيام وتبعث المخدرين... وها هو "النورسي" يصرخ من قلب هذه المأساة البشرية الدامية:

إعلموا - يا أحمقوني - أن عصرنا هذا هو عصر "إنقاذ الإيمان" من بين براثن المادية الطاغية، وزمن تحصين الروح الإنساني وإمداده بالطاقات الإيمانية التي تؤهله للتصدي لأعداء الروح.. فإذا ذهب الإيمان، ذهب كل شيء، وإذا غاضت يناعيه، وجفَّت سواقيه، غاضت روح الإنسان وجفَّ قلبه وتيبست نفسه وماتت إنسانيته...

ولا أظنه مغالياً ذلك المفكر الذي قال في معرض تحدُّثه لنا عن "النورسي":

إن رسائل "النورسي" وكتاباتة التي خلفها وراءه هي قوت البشرية وزادها وحظها من هذه الحياة، ولا بد أنه سيأتي ذلك اليوم الذي تنتبّه البشرية بأسرها إلى هذا الزاد فتقبل عليه لتنال نصيبها منه...

* * *

ونوغل في رحلتنا، ونلتقي هنا وهناك نماذج من تلامذة "النور" الذين بنتهم أفكار "النورسي" فمنحتهم هذه الأفكار، وضح الرؤية، وشمولية

النظرة، وسعة الفهم، وعمق الإدراك. وأرهفت فيهم أحاسيس الذوق والجمال والشاعرية. ونهت فيهم محطات التلقي عن الكون، وأجهزة الإنصات لكل نامة وهمسة مما تقع عليه العين من مخلوقات الله، حيواناً ونباتاً وجماداً، فإذا بهم يعقدون مع هذه الموجودات مشاعر حارة من التعاطف والمحبة والمودة، فلم نَرِ -على كثرة ما رأينا- جماعة تحفل بالجمال مادة ومعنى. تتذوقه، وتتأغم معه، وتفتش عن مظانه وترود ينابيعه، وتناغيه وتحاوره كما وجدنا ذلك في "طلبة النور" صبيانا وشبابا وشيوخا. فالزهرة تفيض بالمشاعر والأحاسيس في فكر "النورسي" وفي أفكار تلامذته من بعده، والبلبل والفراشة، والعندليب والعصفور، والنملة والنحلة، مخلوقات رقيقة، ورموز مليئة بالمعاني والأفكار في ذهن "النورسي" حتى أنه ليوليها الكثير من اهتماماته مما كتب من رسائل، لأن كل ما في الحياة من جمال هو في حقيقة أمره مظهر من مظاهر تجليات الجمال الإلهي الأعظم والأقدس، الذي يوجب على البشر الإحترام والخشوع ويفرض الإنعطاف والانجذاب والعشق والشوق...

وقد غدا هذا الجانب الجمالي من فكر "النورسي" موضع تطبيق عملي في الممارسات اليومية "لطلبة النور" حتى أن التائق والذوق في المأكل والملبس والمسكن -مع مراعاة قواعد السنة النبوية الشريفة في التواضع والبساطة والشكر على النعم- هو ميزة "طلبة النور" وطابعهم العام الذي أدهشنا واستحوذ على إعجابنا..

* * *

وتمخر سفينة رحلتنا البحار الفكرية العميقة "للنورسي" فتنساب مرة في
إسترخاء الوجد الحالم وتارة تصارع النوء متأرجحة فوق هدير فكري موار،
وأنباج عقلية مهيبة تقلقنا وتزلزل كل بنانا الفكرية التقليدية المتصدعة..
ونكتشف أننا إزاء عملاق من أعظم نقدة الفكر الغربي والحضارة
الغربية، وأنه من أوائل الرواد الذين وقعوا على مفاتيح هذه الحضارة، وأشار
إلى أن سر قوتها يكمن في فكرها العلمي المنظم، وفي مناهج البحث
التجريبية العملية، ونبه الشعوب الإسلامية إلى ذلك، ودعا الحكومات إلى
ضرورة تدريس علوم الرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك في مدارسها جنباً
إلى جنب مع العلوم الإسلامية، لكي تتخرج أجيالنا المسلمة وهي مزودة
بنفس السلاح الذي كانت "أوروبا" قد شهرته في وجوهنا.

ولعل أولى مساهماته التحسسية المباشرة لهذه الحضارة باشرها وهو يقود
"الأنصار" في الحرب العالمية الأولى على الجبهة التركية الروسية، وأثناء وقوعه
في أسر الروس، ومكوته في مدينة "كوستورمه" على ضفاف نهر "القولغا"
أسيراً مدة ليست بالقصيرة، وخلال هروبه من الأسر عبر ألمانيا والنمسا
ودول أوروبية أخرى.

ولا شك أن عقله الموسوعي الكبير كان قد سجل الكثير من
الملاحظات والإنطباعات عن هذه الحضارة، وأغلب الظن أنه اطلع بعد
ذلك -أو قبل ذلك- على منابع الفكر الأوروبي وفلسفاته الكبرى التي
ساهمت في تشييد هذه الحضارة، لأن الضربة الموجعة القوية الموجهة إلى
بعض من جوانب هذه الفلسفات والمبثوثة هنا وهناك من رسائله وكتبه،
تشير إلى أنه كان على إطلاع جيد على أصول هذه الأفكار والفلسفات.

وقد دهشنا ونحن في مدينة "وان" عندما سمعنا من أحد طلبة "النور" بأن الأستاذ "النورسي" قضى فترة من عمره في هذه المدينة، وأنه كان يمضي الساعات الطوال كل يوم بين أجهزة الرصد وأنايب الاختبار في المختبر العلمي التجريبي الذي كان "طاهر باشا" والي "وان" آنذاك قد استقدمه من أوروبا للأغراض العلمية.

وهو بهذا يعطينا الدليل على نزعته العلمية وعقله التجريبي العملي الذي كان الطابع العام لحياته وفكره. وقد غدا هذا السلوك العلمي والعملية للأستاذ موضع اهتمام طلبته من بعده، ومصدق ذلك هذه المكتبة العلمية الضخمة التي أنشأها إختصاصيون من طلبة النور في شتى المجالات العلمية الحديثة، والتي تهدف في المحصلة النهائية إلى البرهنة على أن الحقائق العلمية الثابتة لا يمكن أن تناقض الحقائق الدينية الثابتة، وأن النواميس الكونية المادية والناواميس الدينية تنبع من منبع واحد، وتصدران عن مصدر واحد هو الله سبحانه وتعالى.

ونتابع المسير في دروب "النور" يحدونا صوت "النورسي" القوي النافذ رغم كل ما في قلبه من كلوم، ويحث خطانا هتافه الباسل الشجاع رغم كل ما في روحه من جراح، وطفقت صور من جهاده الشاق الطويل الدامي تتراءى لنا وتمرّ على صفحات مخيلتنا، فتثير فينا أحاسيس الإعجاب بالعظمة الإنسانية عندما تعلو وترتقي حتى تبلغ أقصى مداها، وقمة عبقريتها، ونسائل مشفقين:

تُرى أي مصير رهيب كان ينتظر تركيا، لو لم يقبض الله سبحانه وتعالى

لها هذا الرجل، في وقت بدأت فيه فؤوس الحقد، ومعاول الهدم تعمل على
زلزلة الإيمان وتقويض بنيانه ومسح آثاره من البلاد؟!
ويتراءى لنا طيف (الأندلس) شاحباً باكياً وقد انحسر عنه الإسلام
وغادره إلى غير رجعة الإيمان....

* * *

الفصل الأول

صورتان

في البدء.. كنتُ استشف صورتك وأرسم ملامح شخصيتك وأتخيّل معالم إنسانيتك، في لمعات فكرك، ونتاجات ذهنك، وخلجات روحك، وإشراقات قلبك.. وأنا أقرأ رسائلك وأغوص في أنوار كلماتك، وأرّف في أضواء عباراتك.. أو وأنا أحلق في أجواء أشواقك.. أو وأنا أصغي إلى أنين روحك الغريب المعذب، وأتسمّع عن كذب لنبضات وجدانك الأسيف الأسيان.. فأراك من خلال ذلك كله - إنساناً هو القمة في الإيمان، وداعية إسلامياً هو الجبل الأشم في الصلابة والصمود، ومفكراً هو البحر في عمقه وسعته وشموله، وقلباً ندياً هو الربيع في روائه وخصبه، والينوع الثر في عطائه، والنهار الضحيان في إشراقه، وروحاً هو الحديد في قوته، والبرق في خطفته ولمعانه، ولساناً هو السيف البتّار في تقطيع سدف الظلام وتمزيق حبائل الجحود والإنكار.

و شاء القدر أن ألتقى "صورتك" مرةً بين ثنايا الكتب، وعلى صفحات المجالات، التي شرعت - في الآونة الأخيرة - تكتب عنك، وتتناول سيرتك بالدراسة والتحليل، فجلستُ أتفرس فيها فاحصاً، وأمعن النظر مدققاً، رغباً

في سبر غورها والتعرف على ما توحيه من أفكار، وما تشف عنه من معانٍ.. فراعني هذا النبل الذي يتقطر من جبينك العريض الوضاء، وهالني هذا النفاذ لبريق عينيك الذي يحسّ المرء إزاءه بأنه أمام قوة من قوى النفس الغامضة التي تستحوذ على القلوب والعقول وتنفذ إلى مداخل النفوس دون استئذان أصحابها..

وشدهني شمم الأنف الدقيق الأنوف من غير كبرياء.. وطالعتني شبه ابتسامة وادعة مطمئنة على فم ملموم بصرامة من غير قسوة، وكأن شفتيه تطبقان بقوة على سرّ من أسرار الوجود وتشدّان بصلاية على حقيقة الخلق والحياة، ولكنهما -رغم ذلك- تنتظران لحظة العطش الروحي والظمأ الفكري، لتفيضاً بحاراً وتسكباً أثماراً، ومن تحتها ذقن صغير مدبب حاد، يُشعركَ كلما أوغلت النظر في تقاطيعه ومنحنياته بأنه إطار رجولة فذّة نادرة في الرجال، وسور شجاعة خارقة قلّما تلمس مثلها في الشجعان..

وتطابق الرسمان، وتماثلت الصورتان، صورتك المعنوية المتخيلة من أفكارك ومعانيك في رسائلك وكتيبك، وصورتك الشبحية الجسمية المرسومة على صفحات القراطيس والأوراق.. وهي قلّما تتماثل أو تتشابه في أحد من الناس كما تماثلت وتشابهت في شخصك العظيم..

في زحمة الأحداث

وظفقت أتتبع بصمتٍ مهيبٍ آثار خطاك الهادئة الرزينة على دروب
السنين والأيام، الطافحة بالمرارة والألم والدموع. وأفتش عنك في مزدحم
الأحداث المرعبة الدامية التي لقيت عالم الإسلام من أقصاه الى أقصاه،
وأغرقت بطوفان هائل مخيف من أفكار الكفر والجحود والإنكار، وفرضت
على الشعب المسلم مذاهب الغرب وأفكاره ونظرياته وكل ما يُبعده عن
دينه، ويحجزه عن إيمانه - فألقاك شمساً ساطعة في سماء الإيمان، ونوراً
متوهجاً في قلب الظلام الكثيف، تحمل بصدق وشرف لواء المنافحة عن
الفكر الديني الأصيل، وتتصدى بقلب جسور للذود عن حصونه وقلاعته
التي لا ترام.

عاشق القمم

وأَمْضِي مع الاحداث اسائل عنك.. أتسلق السفوح وأتوقل القمم..
واصَّعد الى الأعلى.. وانا اصرخ ملتاعا
مَمْرِنُ يأخذ بيدي الى وكر هذا الصقر الذي ماعشق شيئاً في حياته،
كما عشق السمو والعلو والارتفاع..؟
من يدلني عل طريق هذا النسر العظيم الذي ظل يرفرف بجناحيه في
سماوات المعاني، واجواء الافكار منذ نبتت قوادم ريشه، فلم يعي ولم يتعب
حتى آخر خفقة من روحه واخر نبضة في قلبه..؟.. يا عاشق القمم.. يا محب
الاعالي.. اي شوق عظيم يشدك الي السمو فوق الصغائر والتوافه، ويجذبك
الى عالم الهموم العظيمة والمشاكل الخطيرة...
أي حنين مُمض في أعماقك يدفع بك إلى حيث المراقبي الصعبة، والقمم
الشامخة والمنعطفات الحادة الزلقة.. أي مغامر أنت..؟ تَهفو الى المخاطر كما
يهفو الرضيع الى ثدي امه.. وتتوق الى المصاعب والشدائد كما يتوق الظمان
الي قطرة الماء.. فإذا بك - مند صباك - تحول بين عوالم الافكار والمذاهب
والاديان، جولان الباحث المنقب المتعطش إلى المعرفة، فتكتشف أن الإسلام
أعلاها قمة، وأسمهاها فكراً، وأصدقها حديثاً، وأشرفها مجداً، فترقى إليه وتجوّز
قممه الواحدة بعد الأخرى، سالكا شعابه شعباً شعبا حتى تصل إلى "حراء"
قلبك فيغمرك نوره، وتُحفك سكينته، فيطّرح وجودك كله إيماناً وتصديقاً ليفيض
بعد ذلك جداول وأَنْهاراً في "رسائل النور" التي يغتسل بأضوائها اليوم عشرات
الألوف من أتباعك وطلبتك..

الرجولة المبكرة

لم تعرف عبث الطفولة في حياتك، ولم تغرك ملاعب الصبا، ومراتع الأحداث من أترابك، فقد كبرت مكبراً.. وإنبحست في روحك -وأنت ما زلت غضّ الإهاب- همّم وإرادت لا يعرفها إلاّ الفحول من عظماء الرجال، وحملت على كاهلك الصغير هموماً ذهنية ومشاغل فكرية لا يحملها إلاّ العباقرة من الرجال الناضحين المدلفين إلى العقد الرابع من سني حياتهم..

تحضر في الليالي الهادئة مجالس والدك الشيخ التي يرتادها عادة علماء القرية وشيوخها وذوو السنّ فيها، وتجلس في طرف قصي من المجلس، تتسمع بلهفة إلى أحاديثهم وإلى ما يديرونه من حوار بينهم، في قضايا الوجود والحياة والإنسان..

ويروعك مصير الانسان على هذه الأرض ونهايته المفجعة وصيرورته في خاتمة المطاف الى شقّ صغير من الأرض، تحت كومة من التراب المهيل.. ويقدر فرح روحك بالحياة، وإبتهاج قلبك بالوجود، كانت فكرة "الفناء" تصدمك وتؤرق فكرك، وتَقَصّ مضجعك.. وسيف "الموت" المصلت على رؤوس الأحياء في كل ساعة بل في كل لحظة وهو يجزّها جزأً، يثير مكامن الرعب والخوف في نفسك..

وبقيت حائراً بين طريقي هذه المعادلة الصعبة.. لماذا نموت إذا كُنّا دُفِنا إلى الحياة دفعاً، وقُدِفَ بنا إلى الوجود قذفاً دون إرادةٍ أو رغبة مَبْنِا..؟. ونحن البشر من أين أتينا..؟ وإلى أين نحن ماضون؟ ولماذا؟ وكيف؟. وهنا في هذا

الظلام النفسي المخيف، تتألق في ذهنك اللّمّاح فجأة فكرة "الخلود" ويشرق القلب بنور "البقاء" وتتوهج الروح بأقباس من أنوار الغيب الدائم، وأضواء من نور الأزل والأبد.

وتعمّيقُ فكرة "الموت" وتناقشُ مقولة الفناء بمنطقك الإيماني لتقرر بعد ذلك أن "الموت" هو لون آخر من ألوان الحياة، وصورة أخرى من صور الوجود، وإننا نموت لنحيا من جديد كما تموت حبة القمح -تجوزاً- في بطن الأرض، لتبعث حية في سنابلها مرة أخرى.

وفي لحظة إنتشاء ذهني، وإمتلاءً بالوجود والحياة تسأل نفسك هذا السؤال:

لو - خيّرْت يا سعيد - بين العدم والفناء أو الخلود والبقاء ولو في جهنم الحمراء، فماذا تختار؟
وتجيب على سؤالك.

إنني - لا شك - سأختار البقاء والخلود ولو في جهنم على العدم والفناء..

الخلود و الفناء

ان روح الحياة تغمر كل شيء، وتمد كل شيء باسباب الوجود والبقاء وان العوالم والاكوان من اصغر ذرة الى اعظم جرم فيها قد انبثقت عن "الحي"، "القيوم"، "الازلي"، "الأبدي" لذا فلا وجود حقيقياً للموت او الفناء في عالم كل ما فيه مشحون بطاقات الخلق والإبداع، وفي أكوان كل ما فيها ينبض بالحياة والحركة..

والإنسان سيد هذه الأرض، وأحد سكنة هذا الكون، هو أيضاً محكوم بسننه ونواميسه، مخلوق للخلود والبقاء، وما الموت في حياته إلا عرض طارئ على طريقه، وجسر لا بد من مروره عليه إلى ذلك العالم الحي الجميل الخالد.

وتظل فكرة "خلود الإنسان" وإمتداد حياته في الآتي من الازمان والآباد، المحور الرئيسي الذي تدور عليه أفكارك ويقوم عليه صرحك الذهني وبنائك العقلي في كل ما سطرت من كتب، أو أملت من رسائل، لأنها الفكرة التي من دونها تبدو الحياة تافهة رخيصة، وعبثاً لا طائل من ورائه، ومأساة رهيبة ينبغي ان توقف عند حد، كما يفعل الكثير من اليائسين في أرجاء العالم، عندما ينهون حياتهم بطريقة ما من طرق الإنتحار.

فاذا كان الله - سبحانه وتعالى - قد اختار لنا الحياة، وحكم علينا بالخلق والإيجاد، وكتب لنا الخلود.. وإذا كان "الموت" هو النفق الذي نمر

من خلاله لنواصل "حياتنا" من جديد على الجانب الآخر من عوالم "ما بعد الموت"...

إذا كان الأمر كذلك كما تعلمنا الإسلام فإن الخوف من "الموت" هو احد أوهامنا الكبرى الذي ينبغي أن نتحرر منه، ونلقيه عن كواهلنا المتعبة جانباً. فالتحرر من عقدة "الخوف من الموت" هو أولى مراحل الإيمان الذي أشرعت قلمك من أجل تعميقه في النفوس وترسيخه في الأفتدة، وجعله القاعدة والأساس في كل فكر إيماني واعٍ، ووجدان إسلامي سليم. وانظر إليك مستعرضاً سيرتك على ضوء هذه المفاهيم والأفكار فأجدك النموذج والمثال الذي يمكن "للإيمان الشجاع" أن يفعله في الإنسان، فكننت في سلوكك وتعاملك مع الاحداث ومعايشتك للواقع، القدوة والمثال لتلاميذك ومحبيك، في قلبك المقتحم الشجاع وجنانك الثابت الهادئ، وضميرك النقي الطاهر الذي لم يلوث ابداً رقم كل معارك الفكر التي خضتها مع الخصوم والأعداء ، ورغم كل ما بذلوه لك من وعد أو وعيد، ورغم كل ما أحاطوك به من صنوف الإرهاب من سجن ونفي وتشريد ورغم مئات المحاكمات التي أقاموها لك هنا وهناك من المدن في طول البلاد وعرضها.

النظرية و التطبيق

وتمضي في طريقك على هدي "الفكر" الذي بتُّ تُعاشيه معاشية الحياة، وتستوحيه فيما تأخذ وتعطي، وتقبل وترفض، وتستشيريه في كل ما تتخذه من مواقف إزاء أحداث الحياة، ووقائع الأيام، فكنت في كل ذلك مخلصاً لفكرك وإيمانك وعقيدتك، التي غدت الهواء الصافي لرئتيك، والنبض الحيّ لقلبك، والدم النقي لكيانك..

فأنت لم تعرف في حياتك أبداً هذا الانفصام الذي نشاهده عند الكثير من المفكرين المرموقين بين النظرية والتطبيق، وبين الفكر والعمل وبين العقيدة المجردة في الذات وبين السلوك الشخصي، والتعامل مع الأحداث والوقائع، حيث الإختبار الذي يتهاوى عنده الكثير من أصحاب الأفكار والعقائد، والمحك الذي قلما يثبت عنده إلا القلّة القليلة منهم. أما أنت، فقد توحد عندك الفكر والعمل، وتعانقتُ لديك النظرية والتطبيق، واقتربت في ذاتك المعرفة والسلوك، ولعلّ هذا هو سرّ قوتك، واحد أسباب قوة شخصيتك التي هزّت القلوب الميتة، وزلزلتْ النفوس الساكنة، وحركت الأرواح الهامدة، وألهمتْ العقول المنطفئة، وبهرتْ فيما فجرتْ في قلبك من عيون الكلام عشرات الألوف ممّن قرأ لك، وأصغى إليك.

ايجابية العقيدة

لم تعرف "السلبيات" في حياتك، ولم تجربت الانفلات من دائرة "الحدث" أو التقوقع خارج "المواقف والأزمات" لأنّ "السلبية" فكراً وعقيدة -عندك- هي نوع من أنواع "العدم" يجب ألا يتورط "المؤمن" فيها، لأنها تجرّه تدريجياً -سواء شعر بذلك أم لم يشعر- الى عملية تجميد فكري، وموت عقائدي، تلقي به بعيداً جداً عن تيار "الحياة" المتدفق بالتجديد والإبداع.

والسلبية -سلوكاً- عندك أيضاً مناقضة لإيجابية "العقيدة" التي ينبغي أن يكون لها موقف معين من كل حدث من الأحداث التي تواجهها، ومن كل واقعة جديدة يقذف بها إزاءنا تيار الزمن متحدياً إمكاناتنا العقيدية والفكرية.

فعندما تشتعل الحرب العالمية الأولى سنة 1914م، وتشارك الدولة العثمانية فيها، تسارع أنت بإيجابية متفتحة على هذا الحدث التاريخي الهام بتشكيل فرق الأنصار، وقيادة جماعة من طلبتك لمقاتلة "الروس" على الجبهة التركية الروسية، وتبلى أنت ومين معك من خالص تلامذتك بلاءً حسناً يعترف لكم به القادة العسكريون، ويشكرونه لكم.

وبذلك أثبتت تجربتكم الإيمانية في ساحات الحرب وغمرات المعارك بنجاحاً منقطع النظير، أكد صدق منهجك الملتمزم بوضع "العقيدة" موضع الإمتحان الفعلي في كل الميادين الحياتية، لتثبت قدرتها الفائقة على التفاعل

الإيجابي مع الحدث بمفاهيمها ومعطياتها، ولتؤكد إمكانياتها على مواجهة التحديات في كل زمان ومكان.

وفي هدوات الليالي، عندما يصمت السلاح، وتسكت ضوضاء الحرب ويلقي المتحاربون بأجسامهم المنهوكة في أحضان خيمهم، وبين حفر خنادقهم، يأبى فكريك اليقظ المشدود دائماً وأبداً الى حقائق الإلإ سلام أن يستحمّ أو يستنيم للراحة والسكون، فتملي على أحد تلامذتك المقربين "الملا حبيب" كتابتك القِيم "إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز" وهو كتاب في التفسير، دون أن يكون تحت يدك -وأنت في ساحة حرب- أي مرجع أو مصدر في التفسير واللغة سوى "القرآن الكريم" معتمداً في تصنيفه على محفوظاتك فيما قرأت من كتب اللغة وعلوم الدين في صباك وشبابك.

نظرات مستقبلية

لقد حطمت قيود روحك، وهدمت أسوار عقلك، فغدت بصيرتك قادرة على النفاذ الى الأزمان الآتية والعصور القادمة، فأطلت على الأزمان وأبصرت ما تحمله الى الشرق من أهوال ومخاطر.

كانت إرهابات المستقبل أجراسٌ تُذِرُ تدقّ في أعماق روحك، وأصوات تحذير تتجاوب أصدائها في جنبات فكري ووجدانك. لقد أحسست مسبقاً بأن أعنى العواصف وأشد الرياح ستهبُ من "أوروبا" حاملة إلى العالم الاسلامي فتناً كقطع الليل المظلم، وزلازل تزلزل أفكاره وعقائده، وتهزّ عقله ووجدانه، وأن "أوروبا" القوية بعلومها وفكرها وحضارتها، ستجد في شعوب الشرق عامّة، والشرق الإسلامي خاصةً لقمةً سائغةً وفريسة سهلة المنال لما كان يعانيه الفكر الإسلامي من ركود وهمود وتخلّف، ولما كان قد آل إليه الروح الإسلامي من انكفاء على الذات وانطواء على النفس، دون أيّ إحساس بضرورة التفتح على الحياة بمعطياتها الحضارية الجديدة.

فأسرعت تفرع أجراس الخطر، وتطلق صفارات الإنذار، وتنبه المسلمين لما سيحيق بهم من أخطار فدعوهم للانكباب على دراسة العلوم الحديثة، وطالبت بأدخال هذه العلوم الى المدارس الدينية لتدرس جنباً الى جنب مع العلوم الدينية، وتوجهت الى "إستانبول" وسعيت بكل جهدي لإنشاء جامعة إسلامية تبني فكرتك في تدريس علوم الطبيعة والحياة والفلك الى

جانب العلوم الدينية والفقهية والدراسات القرآنية، لكنك لم توفق في مسعاك، فلم تلق أذنًا صاغية من حاشية قصر "يلدز" المقرين.

وتحسّن -بفراصة المؤمن- بجهول المأساة القادمة وتشعر -بجدس المفكر- بقتامة المصير الذي ستؤول إليه الشعوب الإسلامية اذا هي لم تتدارك أمرها ولم تصحّ من هذا النوم الفكري الثقيل والسبات الحضاري العميق.

وتهبّ أنت وتصرخ في آذان النيام: أن استيقظوا وتحفّزوا واستعدوا.. فهذه "أوروبا" القوية الفتية قادمة اليكم بكل غرورها وصلفها وكبريائها قدوم العواصف العاتية، والرعود القاصفة التي ستهزّ عقائدكم من الجذور، وتأتي على بُنى حضارتكم من القواعد.. أيها المسلمون: امسحوا كرى القرون عن أعينكم.. وإغسلوا وسن الغفلة عن أجفانكم واستلوا في وجوه الغزاة القادمين سيف العلم والمعرفة الذي به يحاربونكم، وبسلطانه يستعبلونكم.. وأوقفوا زحوف جحافلهم بإذراعكم دروع الإيمان، وتحصنكم بحصون الإسلام.. وأقتبسوا لظلام أرواحكم، وصقيع أفئدتكم أقباساً من روح "محمد ق" وأسناءً من سنى فؤاده الذي ما نام عن ربّه طرفة عين، ولا غفل عن ذكره خفقة قلب..

ورغم ما في كلامك من بساطة الصدق، وما في صوتك من وضوح الحق، ورغم ما كان يترشح على حواشي أقوالك من نبرات الحجة والإخلاص، إلا أن بني قومك لم يفهموا عنك ما تريد، ولم يدركوا أبعاد كلامك، وأعماق صرخاتك.. وسرعان ما شتمّيرت الجهالة الجهلاء عن سواعد الجد، وأنتفضت السلطة العمياء بالمرتزقة من مؤسساتها الدينية لتعتّم على أفكارك، وترش على الأضواء التي تلمع كالبروق الخاطفة من سماء قلبك

وروحك - ليلاً من ليالي قلوبها، وظلاماً من ظلمات أرواحها لتحوّل بين
المسلمين وبين التلقي عنك، والإقبال عليك، والتتلمذ في مدرسة أفكارك
وآرائك..

آلام الغربة

وأحسستَ بحاجز زمني سميكَ يفصلك عن قومك، وبسور فكري يقوم
عالياً بينك وبين أبناء دينك وعقيدتك.. فأنت غريب بينهم، لا يفهمون
عنك ما تقول، ولا يدركون ما تعني وتريد...

وتأسى ويغمرك الحزن، ويتعالى من جديد نواح الغربة في روحك الحزين،
ويرتفع انين اللوعة المفضنة في قلبك الأسيان.

وتعود لمعانقة غربتك نفسها التي عانيتها صابراً في مدينة "قوصتورمه" على
ضفاف "الفولغا" عندما وقعت جريحاً في أسر الروس.. وفي الليالي الباردة
الطويلة الحالكة السواد، كان خريف "الفولغا" الحزين وحده الذي يواسي غربتك
ويؤنس وحشتك.. واليوم تشعر أن جراح روحك بين قومك أشدّ عليك من
جراح جسمك.. وتجد أن غربتك بين أبناء أمّتك في بلاد الأناضول أكثر إيلاماً
وتسهداً من غربتك هناك بين الأعداء في بلاد الروس..

ولكن المدد القرآني العظيم "حسبنا الله ونعم الوكيل" يأتيك على حين غرة
عندما تشعر بعجزك وضعفك، فيهبك من القوة ما تستطيع معها أن تهرب من
أسرك رغم ما تركته الجراح في جسمك من نحول وضعف..

والآية نفسها تهبك اليوم أيضاً من القوى ما تستطيع معها أن تهرب من
هذا الأسر الروحي، وتخرق الحواجز، وتهدم الأسوار، لتوصل كلامك إلى
الآخرين، وتؤدّي رسالتك التي نذرت لها وجودك كله..

مخاض العاصفة

كانت الدوائر الإستعمارية الغربية المتربصة قد مهدت لعملية تسللها الى جسم العالم الإسلامي المفكك المريض، والإجهاز عل رمز وحدته الشاحبة في البقية الباقية مما يسمّى بالخلافة الإسلامية في "استانبول" بغزو فكري منظم لمعاقل أفكارنا الكايبية الخاوية، وحصون مؤسساتنا الثقافية الفارغة الجوفاء.

وقد استطاعت هذه الدوائر -بمساعدة المدارس الإستشراقية- أن تستقطب الى أروقتها الفكرية والثقافية والسياسية أنبغ رجالنا وأذكاهم من مفكرين وسياسيين وقادة عسكريين، حيث تمكنت أن تجعل منهم جسوراً ومعايير تنقل من فوقهم ومن خلالهم هيمنتها السياسية والإقتصادية والفكرية والعسكرية أيضاً الى بلاد هذا العالم البكر بطاقاته وثرواته ومواقعه الإستراتيجية الهامة، وذلك بعد أن تهاوت شجاعة "الروح المسلم" المثخن الجراح في سجون الجهل والتخلف، وتساقطت الأملعية الشمّاء، والرجولة الحقيّة في مهاوي العجز والكسل، وغاضت البطولة السامية الأصليلة، وإختفى الصدق والحق والعدل ليحلّ محلها في سوق السياسة المعتمة السوداء الباطل والزيف والكذب.

وتأتي العاصفة - كما توقعت تماماً- مظلمة محلولة السواء، ويشند عواؤها ويثور ذلك النوء المخيف الذي حدّرت منه حاملاً معه أفواجاً من الرعب، وفجأةً ينشقّ الظلام عن مخلوق هو أشدّ ظلمةً من كل ظلام

الأرض. وتمخض العاصفة لتلد جنيناً مسخاً، أُعْبِيَهُ الموت، وشرابه الدم، وقوته الحقد، ذلك المخلوق الذي انزاحت عنه العاصفة هو "دَجَالِ المسلمين"، آتياً قومه بكل أحقاد الصليبية الموتورة، وسموم الماسونية اليهودية على الإسلام والمسلمين.

البطولة المصنوعة

في أزمان الخواء الروحي الذي يُفقدُ الشعوب أصول جلالها، ويجفف معين بسالتها، وفي عصور الهبوط النفسي والإنحدار الفكري الذي يسببه الكسل العقائدي والإسترخاء الإيماني لدم الأمم - في مثل هذه الظروف القاسية الماحلة الجذباء التي تمرّ على الشعوب والأمم كما تمرّ الأوبئة الفتاكة والأعاصير المدمرة- تختفي البطولات وتتوارى العبقريات وتشح الرجولة وتُصابُ الشجاعة نفسها بالترنح والسقوط وسرعان ما تفرغ ساحات النضال من الرجال الشجعان، ويخلو الميدان لأشباه الرجال لكي يلعبوا لعبة الشجاعة ويمتلوا أدوار البطولة على مسارح شعوبهم.

فتحاول الغريان أن تتسامى الى أوكار النسور المنيعه، وتطمح الثعالب أن تشب على عرائن الأسود.. وهذا ما وقع تماماً عندما سقط شعب تركيا المسلم - في أعقاب الحرب العالمية الأولى- بين شدقي الوحش الإستعماري الكافر، وباتت -استانبول- قبلة أنظار المسلمين آنذاك تثن أنيناً موجعاً تحت وطأة أقدام الغزاة الأجانب، وتنزف نزيفاً رابعاً يبعث الرعشة في أرواح المسلمين المشدوهين المترقبين لساعة الخلاص الانقاذ على يد "بطل" تبعث به المقادير ليقودهم في معركة مصيرية حاسمة ضد الأعداء المحتلّين. وكان الدهاة القابعون في الدهاليز المظلمة، والأقبية المعتمة، من ساسة الغرب ورجال مخابراتهم، بالتنسيق مع خلايا "الماسونية" المنبثة في المراكز الحسّاسة من أجهزة الدولة قد وضعوا في حساباتهم سبيل مواجهة هذا الترقب الخطر لدى الشعب المهزوم،

فهيأوا لهذه اللحظة النفسية الحرجة "الرجل" الذي يمكنه أن يلعب لعبة "البطل" المطلوب بنجاح؛ ويمثل دور الزعيم المنقذ، والمحرر العظيم للبلاد من جيوش الغزاة المستعمرين. وهذا الرجل الذي اصطنعوه لأنفسهم، وألبسوه ثوب البطولة القشيب، ودفعوا به الى ميادين الحرب والسياسة هو الدجال نفسه المعروف جيداً لدى هذه الأوساط بعذائه اللدود للإسلام، وبحقده العظيم على كل ما يمت للإيمان بصتلة. وهو بما سيحققه من انتصار - قد حُطِّط له مسبقاً - سيغدو رجل الشعب الأول الذي سينفض عنه وعن بلاده وشعبه، الاسلام كما ينفض أحدكم الغبارَ عن حذائه - كما أعلن ذلك واحد من أتباع هذا الرجل.

* * *

كانت روح هذا الرجل المسعور تعوي عواءً مخيفاً، وتبجح نباحاً مرعباً في ظلمات حقه الأسود الدفين على (الإيمان) في أعماق نفسه المنخورة الجوفاء، ولكنه وهو يقود شعباً مسلماً في معارك التحرير كان يوارى حقيقته ويكتمها عن أبناء شعبه الذين التفوا حوله ومنحوه جبههم وثقتهم لأنهم توهموه بطلاً من أبطال الإيمان، وقائداً فذاً من قادة الاسلام، يتقدم لتحرير وطنهم وتطهيره من الرجس الاستعماري البغيض.

فالانتصارات وحدها لم تكن كافية لتبني مجده، وتعزز مركزه القيادي لو لم يتظاهر أمام الجموع بغيرته على عقيدة الامة واحترام دينها.

وهكذا كان، ولكنه لم يكد يستولي على زمام الأمور، ويقبض على ناصية الحكم حتى كشف عن حقيقته، وازاح الستار عن دخيلة نفسه، وبدأ فأسه المكتوم ومعو له الصامت، يتنقل بين اركان الفكر الاسلامي والروح الايماني،

ليَقْوُضَ أركانَه ويَزَلزلُ بنيانَه، مَفصَحاً بِذلكَ عن نَفسِ كَافِرَةٍ مَشحُونَةٍ بِالكَرَاهِيَةِ لِلإِسْلَامِ، وَدَخِيلَةٍ مَطْوِيَةٍ عَلى انْتِقامِ خَارِقِ وَقحِ مِنَ الإِيمَانِ وَالْمُؤْمِنِينَ صَنَعَتْ مِنْهُ سَفَاحاً دَمَوِيّاً مَتَأَهَباً دَوماً لِلقِيَامِ بِمَجمَعَاتِ مَلِيئَةٍ بِالغُضبِ وَالوَحْشِيَةِ ضَدَّ مَعاقِلِ الإِسْلَامِ وَمُؤسَّساتِهِ الإِيمَانِيَةِ وَالفِكرِيَةِ.

أَيَّ أَعْماقِ رُوحِيَةٍ كَانَتْ تَضطَرِّمُ فِي وَجَدانِ هَذا الشَّعبِ وَهِيَ تَواجِهَ عاصِفَةَ الكُفْرِ المَوجِءِ الَّتِي أَثارَها هَذا الرَّجُلُ الحاقِدُ المَأفُونُ فِي سَماءِ الإِسْلَامِ؟ وَأَيَّةَ أَشواقِ سَاميَةٍ طاهِرَةٍ كَانَتْ تَبعثُ مِنَ قَلبِ هَذا الشَّعبِ خَمسَ مَرَّاتٍ فِي اليَومِ وَاللَّيْلَةِ وَهُوَ يَقِفُ فِي خِشوعٍ بَينَ يَدَيِ رَبِّهِ، وَقَدِ ارادَ لَها "الدَّجَجالَ الصَّغِيرَ" أن تَظَلَّ حَبِيسَةً مَخنُوقَةً مَقطُوعَةً الأَسبابَ بِالسَماءِ وَرَبَّ السَماءِ..؟

وَهَذهِ المَساجِدُ الَّتِي شَيدَها سَلاطِينُ بَنِي عُثمَانَ، وَأودَعوا فِي كُلِّ حِجَرٍ مِنْ أَحجارِها، وَفِي كُلِّ لَبَنِيَّةٍ مِنْ لَبَنائِها حَبَةً مِنْ قَلوبِهِم، وَفَلِيدَةً مِنْ حِشاشَةِ أرواحِهِم، وَقِطْعَةً مِنْ حَنائِيا ضَلوعِهِم، هَما هِيَ تَتَحولُ اليَومَ بِأَمْرِ هَذا الطاغِيَةِ الدَمَوِيِّ العَينِيفِ إلى مَخازِنِ وَمَتاحِفِ وَمَرابِطِ لَحِيولِ جَنَدِرمَتِهِ وَجَلاوَرَتِهِ، بَعدَ أن كَانَتْ أروقتَها وَمَحارِبِها تَتَضامُّ عَلى أَقْداسِ أَقداسِ الإنسانِ فِي شَرفِ عِبودِيَتِهِ لِلَّهِ اللهُ ، وَجَمالِ خِشوعِهِ وَتَضَرعِهِ لِخالِقِهِ الكَرِيمِ.. وَتَلكَ المَأذَنُ الَّتِي تَتعالى سَامِيَةً شَمُوخَ الإِسْلَامِ وَسَميَوا الإِيمانَ. وَالَّتِي تَبتَسِمُ فِي عَلوها لِلسَماءِ. وَتَشَرِّقُ فِي عَليائِها فَرِحَةً بِالنَداءِ السَماوِيِّ العَظيمِ الَّذِي يَترَدَّدُ مِنْ فُوقِها مَذكِراً بِالآبِادِ وَالآزَالِ "اللَّهُ أَكْبَرُ" خَمسَ مَرَّاتٍ فِي اليَومِ.. هَما هِيَ اليَومَ تَظَلُّلُها غَماماتُ مِنَ الكَآبَةِ الكَآبِيَةِ الحَزينَةِ وَتَنعَقِدُ فُوقَ أَهلِها سَحَبٌ مِنَ الشَّيْذَةِ الشَّاحِبِ الدَاميِّ حِثْ تَفتَقِدُ لِأوَّلِ مَرَّةٍ ذَلِكَ

النداء النديّ الحنون الذي كان يتردد من فوقها منذ مئات السنين.. وصمم هذا المتآمر الحاقد على الاسلام في خاتمة المطاف أن يقطع شعب تركيا المسلم عن مصادر عقيدته ومنابع ايمانه وركائز تكوينه الثقافي والحضاري، وذلك بحجزه عن "الحرف العربي" الذي نزل به القرآن الكريم وُدُوئِتْ به السنة النبوية المطهرة، واعتماد الحرف اللاتيني في الكتابة والتدوين لكي يتسنى له أن ينشئ الأجيال التالية من شعبه على جهل مطبق بلغة القرآن الكريم التي لا يمكن لأي مسلم أن يفهم تراث دينه وعقيدته أدنى درجات الفهم من دونها، ثم عمد في خبث ووقاحة الى ترجمة القرآن الكريم الى التركية بأجدية الحرف اللاتيني متحدياً بذلك فتاوى العلماء من أصحاب الاختصاص بجمرة ترجمة النص القرآني حرفياً الى أية لغة أخرى. وحتى "الأذان" الذي توارثته الشعوب الاسلامية من غير العرب جيلاً بعد جيل، والذي تردده مآذن جوامعها ومساجدها موقوفاً كما ثبت نصه في السنة النبوية المطهرة، أبي "الدجال السفية" إلا أن يخترع له ترجمة تركية أفقدته الكثير من الرواء والحنو والجمال، وفرض على المؤذنين أن ينادوا به للصلاة. ومضى هذا المعجب المفتون بالغرب، يقلّب الغريبين في كل شيء تقليداً أعمى، وفرض على شعبه أن يرتدي "القبعة" شعار التمدن الغربي، كما توهم، وجعل العطلة الأسبوعية الرسمية يوم الأحد من كل أسبوع بدلاً من يوم الجمعة عطلة المسلمين.. الى آخر ما أصدره من قوانين مخالفة بنصها وروحها للشرعية الاسلامية الغراء.

رجل القدر

تُرى أمثل هذه الأهوال التي أحدثت بالاسلام والمسلمين قد رصدك
القدر واحتفظ بك الغيب يا سعيد؟

ليت شعري أمثل هذا الاعصار الكافر المدمر الذي يسعى الى قلع
شجرة الايمان من الاعماق اختارتك السماء يا رجل الايمان وخادم القرآن،
لتنهض من دونها وتحمي بلسانك وقلمك عنها؟...

لقد دقت ساعة المعركة الرهيبة، وأن أوان الصراع المرير بين قوى الخير والنور،
وقوى الشر والظلام.. إنه ألف معول ومعول يتحرك في وقت واحد لينهال
بضرباته الحاقدة على اصول الإيمان، وجذور العقيدة الممتدة عميقاً في قلب هذا
الشعب ووجدانه وضميره، وإن ألف سهم وسهم توجهت مجتمعةً الى قلب الحقيقة
الكبرى التي قديم بها محمد ق الى البشرية جمعاء، وإِنَّه ألف ليل وليل يزحف في
ركاب الطاغية الكبير ليسد منافذ النور ويغمر مسارب الشمس بدخان أسود
كثيف..

وتخاطب نفسك بلسان الحال:

- انهض يا سعيد.. قم وارفع في حومة هذا اليأس المحيط علم الرجاء،
وأشعل في ظلامه الرهيب بصيص العزاء والأمل.. قم يا رجل القدر.. عانق
قدرك.. واحتضن مصيرك.. فلو كان لك ألف نفس لفديتها جميعاً - دون
تردد - الواحدة تلو الأخرى - في سبيل حقيقة واحدة من حقائق القرآن،
وركن واحد من أركان الايمان..

فليس - كاليوم - يومٌ يا سعيد - يحاصرُ فيه الإيمان وتتناوشه أقذر
الأسنة والأقلام ويبيت هدفاً لسهام الرماة من أذعياء العلم والمعرفة المفتونين
بمدنية الغرب وحضارته. وتستنفر كل طاقاتك الروحية والفكرية، وتحفز كلَّ
ما انطوت عليه أعماقك من قوى إيمانية وأمداد قرآنية، وتعزّز صمودك
الإيماني، وتقف بالمرصاد تصدّ بقلمك ولسانك الهجمات المتوحشة التي
تشنها أجهزة الإعلام السياسية والثقافية على معقل الإيمان والاسلام تحت
مظلة السلطة الحاكمة وغطاء سلطاتها.

الأسطورة تحكم

كانت أسطورة "الدجال الصغير" قد تضخمت وكبرت واحتلّت مداها الواسع في أحلام الناس ومخيّلاتهم ليس بسبب ذلك الانتصار الذي أحرزهُ على الغزاة المستعمرين فحسب، بل لِمَا أضفّتهُ على شخصه أجهزة الاعلام في الداخل والخارج " والتي تحركها من وراء ستار الدوائر الماسونية واليهودية" ولِما بدأ ينسجحه حوله الأتباع والمقربون من قصص وخرافات سياسية تظهره فيها بمظهر الزعيم المقدس الذي يتكلم الشعب بلسانه اذا تكلم ويريدُ الشعب ما يريدُه اذا أراد.

وأمثال هذه الأساليب كانت وما زالت قادرة على أن تمنح القوة والصولة حتى للبهاء والأغبياء من الحكام والملوك فتتسابق قطعان الرعاع مهينةً تحت أقدامهم، وهي مأخوذة مفتونة بسحر الأسطورة، وسلطان الخرافة.. وهكذا كان المجلس النيابي الملموم من الأتباع والأنصار مسحوراً مأخوذاً مغمض العينين، معطلّ العقل، مستعداً أن يضع توقيعه على كل ما يريد "الدجال السفیه" لهذه الأمة من ابتعاد عن الإيمان وتنگر للإسلام.

وكان لا بدّ من صاعقة قوية ينتفض على صوتها النيام، ويصحو على رعدھا المأخذون المسحورون، وقد كان حيثُ بادرت الى تفجير احدی قنابلک الايمانية والفكرية في قاعة المجلس، فتوجهتَ ببيانك الشهير الى اعضاء المجلس مصدراً بهذه العبارة المثيرة: "إعلموا أيها المبعوثون: انکم لمبعوثون ليوم عظیم". وقد تولى إلقاءه نيابة عنک النائب "كاظم قره بکر"

وكان وقع هذا البيان عظيماً على النواب فقد أحدث فيهم هزّة فكرية، وانتفاضة روحية، وبقظة قلبية إيمانية؛ حملت ستين نائباً منهم للعودة الى حظيرة الايمان واقامة شعائر الاسلام.

وقد أثار هذا التحول الإيماني عند هؤلاء النواب حفيظة "مصطفى كمال" فأمر باستدعائك لملاقاته في ديوان المجلس النيابي، ويتم اللقاء وتحدث بينكما مناقشة حادة تنتهي بهذا الحوار:

- لا ريب أننا بحاجة الى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك الى "أنقرة" للاستفادة من آرائك السياسية، ولكن -أنظر- إن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان باكورة عملكم هنا هو بثّ الفرقة في أهل هذا المجلس..

وتجيب أنت مشيراً اليه باصبعك في حدة الايمان

- باشا.. أعلم أن أعظم حقيقة تتجلّى بعد الاسلام إنما هي الصلاة.. ان الذي لا يصلّي خائن لله ولنفسه وللوطن، وحكم الخائن مردود.. ويضطر "مصطفى كمال" أمام جوابك هذا أن يعتذر منك على مضض، ويُنهي حديثه طاوياً صدره على غيظ مكنوم وحقد مستور.

مصائد الرجال

ما أكثر الثبأك على الطريق للسالكين، وما أكثر المصائد التي تُنصب في الزوايا والمنعطفات لإقتناص الرجال المرموقين، وما أكثر هؤلاء الرجال الذين يسقطون فيها، ويتهاوون في حبالها ليغدوا بين عشية وضحاها أسارى في قبضة الطغاة من الملوك والحكام الذين يسخرون عقولهم وأقلامهم -إن كانوا من أصحاب الفكر و القلم- في خدمة سياساتهم وترويج مبادئهم وأفكارهم، بما يفلسفون من هذه الآراء، وبما يعطونها من أبعاد عقلانية وعقائدية -قد تكون خالية منها- حتى يمكنها أن تحظى بالأستحابة والقبول من لدن شعوبهم. أو يستأجرون سيوفهم -إن كانوا من أصحاب السيوف- في تعزيز سلطاتهم وتثبيت حكمهم، وحماية عروشهم ممن يريد الإنقضاض عليها، أو سحب كراسي الحكم من تحتهم.

ولكن، أتى، للصدقور وعقبان الجو أن تطالها الشباك أو تتناوشها المصائد، أتى لرجال الأقدار من ذوي الرسائل الخطيرة أن تطوقهم القيود الحريرية و تكبلهم أغلال الذهب و الفضة..؟

لقد أرادوا الإيقاع بك في أحضانهم، وإستدراجك للدخول في خدمتهم حين أصدرت حكومة "أنقرة" بأمرٍ من "مصطفى كمال" نفسه مرسوماً بتعيينك رئيساً للوعاظ شرقي الأناضول كلّه، مع بقائك عضواً في أعلى مجلس علمي وهو "دار الحكمة الإسلامية" و منحك قصرًا من أجمل القصور لتقيم فيه بالجان..

وتدرك مقاصدهم الخبيثة -ولا يخفى عليك- وأنت الذكي الأريب - ما يريدونه من ثمن لقاء منّحهم وأعطياتهم.. وتثور نفسك، ويهيج فيك الإيذاء والشّمَم، وتلقي بكل ذلك في وجوههم، وترفض اعطياتهم ومنحهم، وتأبى لديك أنت تمتد لشيءٍ من أموالهم، تماماً كما أبيت ورفضت في صباك -و أنت ما زلت طالب علم- أن تمتدّ يدك لقرش واحد من اعطيات وهدايا المحسنين من المسلمين لأمثالك وزملائك من طلبة العلوم الدينية، كما جرت عليه عادة القوم في ذلك الزمان.

وتظلّ طوال حياتك قمة منيعة تتألاً بالطهر والجلال، لا تقوى على اقتحامها مغريات الدنيا، أو ينال من شموخها عتاة العالم، لأنك بالإيمان ولالإيمان تحيا.. وبه تتقوى.. وبسلطانه تقهر سلاطين الممال والجلداه والسلطان..

الموت و الميلاد

وتأخذ - بعد سلسلة طويلة من المضايقات والمحاکمات والإستجوابات- في مراجعة نفسك، وتقييم أعمالك في تأمل ذاتي هاديء واستقرار فكري عميق وتتساءل: ماذا استطعت -يا سعيد- أن تقدم "للإيمان" المضطهد، وللإسلام المهجور وأنت تركب سفينة السياسية، وتخوض بها بحاراً من الأهواء العاصفة، والآراء الصاخبة، وتواجه خصوماً لا يتقيدون -في خصوصياتهم- بالمبادئ الأخلاقية ولا يباليون من أجل الإنتصار عليك أي سلاح يشهرون في وجهك، ولا أية وسيلة - مهما كان حظها من الخسة والدناءة - يتوسلون بها لمحاربتك والقضاء عليك؟ وماذا أفاد الإيمان المههد بالزوال من وقوفك في صف المعارضة، ومن شئتُك المهجوم الغاضب على السلطة الحاكمة من فوق منابر الخطابة وعلى صفحات الصحف؟.

إن هذا الأسلوب في الجهاد لن ينفع في تنكيس أعلام الكفر، أو دحر قوات الطغيان، هو سيعود -في النهاية- بالضرر الكبير على الحركة الإيمانية التي تريد إحاطتها بالأجواء الهادئة التي يمكنها فيها أن تنمو وتزدهر.. فقضية الإيمان الكبرى التي قد كرسّت لها وجودك، وأوقفتَ عليها حياتك، هي قضية القلب الإنساني وتعميق صلته بمنابع النور الصافية الفائضة عن الله سبحانه وتعالى، لأن جفاف القلب من هذه الأنوار وانقطاعه عن هذه الينابيع، هو سبب الشقاء الذي تعاني منه البشرية، وهو أيضاً سبب ما يعانيه الشعب التركي من بلايا ورزايا ومخن ممتثلة بالسلطة الحاكمة المجاهرة

بعدها للإسلام.

فالعامل السياسي في غير ميدان القلب الإنساني -لبناء الإيمان بناءً محكماً يستعصي على كل ما تفرضه السلطة من أنظمة الكفر وقوانينه- جهدٌ ضائع وعمل لا طائل وراءه، وانشغال -بحسن نية- عن القضية المركزية والأساسية يتمناه الخصوم، ويفرح به الأعداء.

ها هي لحظة الإنعطاف في حياتك تقترب.. إنني أتسمّع آثار أقدام إنقلاب فكري تدرع رأسك جيئةً وذهباً.. وأصغي لصوت هدير زلزلة تخضّ كيانك كله، وتهزّ جذور تفكيرك..

ها أنت ذا تطلع -بعد هذه التجارب المريرة والأحداث الخطيرة- إنساناً جديداً، معاني في قواك الفكرية والروحية وبمفاهيم جديدة في العمل "الإيماني" وكيف يجب أن يكون.. وبكل قوة ومن دون تردد تمتشق سيفَ التجديد وتنفضّ به على الجزء العتيق من نفسك لترديه قتيلاً..

وتهمس لنفسك: قم يا سعيد.. احفر في زاوية من زوايا نفسك الخبيثة قبراً.. ووار به "سعيداً القديم"، ثم انفض للإحتفال بمولد "سعيد الجديد".. "فسعيد الجديد" هو رجل المرحلة الحاسمة والخطيرة من مراحل الجهاد في سبيل الإيمان والإسلام.. وليكن شعار هذه المرحلة منذُ اليوم: "اعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

ولكن أية سياسة هذه التي استعدتَ بالله منها؟!... ذلك ما سنراه في الفصل الآتي..

الفصل الثاني

عين كونية

إن انساناً مثلك -أيها الأستاذ الجليل- يعانق الوجود بمحبة، ويحتضن الكون بوذ، ويضم الحياة الى صدره بشوق، ويرقى هائماً في جلال الله وجماله، مسبحاً بحمده وسلطاناه، متعرفاً الى صفات كماله في السعة والإحاطة والعلم والأزل والأبد... لا بد وأن هذه المعرفة القدسية -التي تسمو على كل معارف البشر- اكسبت نظرتك الى شؤون الحياة والمجتمع بسعة وشمولاً وامتداداً وعمقاً، ومنحتك عيناً كونية تبصر بها جواهر الأمور، وحقائق الاشياء، وسمعاً وجودياً تسمع به نواح البشرية المعذبة وآهات الانسان الضامىء الى قطرات نور الايمان، ووهبتك حبساً مرهفاً ووعياً ذكياً قادراً على النفاذ الى قلب الانسان وعقله ووجدانه لتشخيص دائه ووصف ما يصلح له من دواء وعلاج.. فلا غرو -وهذا شأنك، وذاك شمول نظرتك، وتلك سعة فهمك- أن تنصب اهتماماتك الفكرية ومشاغلك الذهنية -في سعيد الجديد- على تناول كليات الانسان -دون جزئياته-

بالدراسة والتحليل للبحث عن الوسائل الكفيلة الناجعة بحل العقد النفسية والفكرية والروحية التي يعاني منها انسان العصر الحائر المعذب الفزع..

فعندك إن الإهتمام بالجانب الجواني من الانسان، ومحاوله بناء ذاته من الداخل وتحصين ضميره بالفكر الإيماني الأصيل، هو حجر الزاوية في سياستك الجديدة التي أمنت بها واقنعت بمجدواها.

ولما كان "الاسلام" يهدف في كل ما جاء به من مبادئ وتعاليم وأفكار وعبادات الى سعادة الانسان في حياته الدنيوية والآخروية معاً، ويسعى لبناء المجتمع "الإيماني" السليم الذي ينطلق أفراده من قاعدة "الإيمان" العظيمة فيما يمارسونه من شؤون حياتهم الاجتماعية والسياسية لذا فقد أصبح هدف تخطيطك السياسي والفكري الجديد هو الانسان نفسه قبل السلطة، هذا الانسان الذي تبدأ به ومنه عملية التغيير الكبرى في بني المجتمع السياسية والفكرية، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَا يُعَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيَّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد؛ 11).

وهل السياسات -والجاذة منها بوجه خاص- إلا مواقف عقائدية يتخذها الفرد أو الجماعة مما يحيط بهما من شؤون فكرية واجتماعية وسياسية تعكس "عقيدة" رجال الحكم في أي بلد من بلدان العالم؟.. وهل الإسلام بكلياته وأصوله إلا موقف؟ فالمسلم إذن هو سياسي بالفطرة شاء ذلك أم أبي. فرحلة المسلم السياسية تبدأ منذ اللحظة الأولى التي ينطق فيها بكلمة التوحيد: "لا إله إلا الله محمد رسول الله". ويعني أبعاد هذه الكلمة وما تفرضه عليه من التزامات وواجبات.

فالتوحيد نفسه -الذي يقوم عليه الاسلام- هو موقف. وموقف رافض لكل ما يجده أمامه من "أيدولوجيات" سياسية لا تتخذ من "الإيمان" أساساً في بناء هياكلها الفكرية والعقائدية، فالسياسة بالنسبة للمسلم بالمفهوم الأنف الذكر - تغدو كالهواء الذي يتنفسه في كل لحظة من لحظات عمره، لأنه ملزم - بحكم عقيدته - أن يتخذ "المواقف" مما يواجهه ويتحداه وهو يمارسها عملياً حتى في أخص شؤونه التعبدية.

اذن فأىّ سياسة هي التي استعدت بالله منها، وأشحت عنها وطويت صفحتها الى الأبد مع تلك الصفحة من حياتك التي واريتها التراب وأهلت فوقها كئيبان النسيان؟ انها - بالتأكيد - تلك السياسة التقليدية اللاأخلاقية التي تمارسها الأحزاب والمنظمات المتصارعة ذات الأهداف الهابطة المحدودة والتي لا يههما "الانسان" الا بالقدر الذي يحقق أهدافها ويوصلها الى غاياتها في الإطاحة بالحاكمين من فوق كراسي الحكم، والتربع عليها من بعدهم، دون الإلتفات الى ضمير الإنسان ووجدانه وما يمكن أن يربحه في إغناء هذا الضمير والوجدان من التغيير في وجوه الحاكمين.

فالمسألة اذن في تقديرك - أيها الاستاذ الحكيم - أعظم خطراً وأشد هولاً من أن تعالج بأمثال هذه السياسات الضيقة المحدودة الأهداف والغايات.

فهناك غزو حضاري غربي، مادي في جذوره وأصوله يتهدد العالم الإسلامي كله، ويكاد يطبق على خنّاقه، والذي كانت "تركيا" أولى ضحاياه، فلا يمكن دفع هذا الغزو او ايقاف زحفه الا بانبعث ايماني جديد

يفجر طاقات شعوب هذا العالم الروحية، ويسلحها بالقوى النفسية والفكرية القادرة على مواجهة تُوْرَة هذا الطوفان الرهيب الذي يقبض الغرب على ناصيته، ويمسك بزمامه، ويسخره في خدمة مذهبه الفكرية وأغراضه السياسية والإقتصادية والعسكرية في الغالبية العظمى من بلدان هذا الوطن الاسلامي الكبير. في وقت باتت فيه الساحة الاسلامية الفسيحة مقفزة من الروح الاسلامي المتماسك، والقادر على قبول التحديات ومنازلة "الايديولوجيات" وإحتواء ما يمكن احتواؤه منها مما ينسجم مع أصوله وقواعده الايمانية العامة، كما كان شأنه - في عصور حيويته وعافيته - مع كافة الحضارات التي عاصرها وجاورها عبّر تاريخه الحافل الطويل.

فأمام هذه القوى المادية العمياء المفرعة المنطلقة من عقاها والمتحررة من قيودها قد فجرتها في قلب "أوروبا" شرارات من لهيب الغضب الإنساني ضد جهالة التعصب الكنسي، وظلمات الباباوية المعادية للفكر العلمي الناهض المتوثب.

أمام هذه القوى الكاسحة كان لا بدّ من رجل مثلك، يخوض غمار هذا الهادر الإعصاري ليين للمفتونين من المسلمين وللعالم كله - بصوت المفكر الهادئ الرزين وليس بصوت السياسي الغاضب المتشنج - ألاّ تناقض - في الأصل - بين حقيقة ثابتة من حقائق العلم وبين حقيقة أخرى من حقائق الايمان - رغم اختلاف المنهج في كليهما - لأن المعارف الايمانية الغيبية، والمعارف العقلية العلمية، تنبع كلاهما من منبع واحد وتقيضان عن مصدر واحد، هو علم الله الأزلي الأبدي الواسع الشامل المحيط، والذي شاءت حكمته - جلّ جلاله - أن ينزل منه بقدر معلوم

ضياءً للوجدان ونوراً للعقل، وفي نورهما معاً -الوجدان والعقل- تنجلي الحقيقة منيرة وضاءة، وتسطع شمسها متوجهة بالحق والصدق لتنير للإنسان سبيل الهداية والرشاد. وباحتجاب واحد من النورين، تظلم النفس وتعشو البصيرة ويقع الخلل المعيب في ذات الإنسان مسبباً له التعاسة والشقاء وما يزهده بالعيش و يكره له الحياة.

وقد غدت هذه الفكرة - فيما بعد - احدى أفكار الرئيسية التي أدرت حولها جملة من كتاباتك في رسائل النور، فقد جاء في احدهما قولك:
"ضياء الوجدان العلوم الدينية، ونور العقل العلوم الكونية، وبأمتزاجهما تنجلي الحقيقة، وعند افتراقهما يتولد التعصب في الأول والشك والشبهة في الثاني".

البريد السرمدى

حين تفور مراجل النفوس الكبيرة بأسرار القلب الإنساني الموصول بمنابع الحق، وحين تتضرم أشواق الروح الى ذلك العالم الإيماني الجديد الذي حلمت به منذ زمن بعيد، وعندما يحس رجال الروح العظام بأذهانهم وهي تتفجّر بشرارات من وهج الروح، وتتهلب ببوارق من رعود الفكر، ويبلغون في معاناتهم قمة التوتر الروحي، ويقون في تجربتهم حتى النقطة التي تتوضح عندها رؤاهم الروحية، وتنفذ من خلالها بصيرتهم الى مشارف المستقبل المشرق بالنصر الروحي الكبير..

هنا عند النقطة بالذات - وقد توضحت الرؤية وانزاحت الحجب واستنار السبيل - تغشى هؤلاء الأفذاذ شعريرية روحية لاهبة تشعل النار في قناديل القلب، وتفجر شمساً مشعة وصحواً ضاحياً في جوارب النفس وأرجاء الوجدان، فاذا بهم يبصرون الأعمق والأعمّ والاشمل، ويدركون الأجل والاعظم والاروع من أمور الفرد والمجتمع والحياة.. أي يبصرون ما لا يبصره الناس، ويرون ما لا يرونه.. وبين البصيرة المنفتحة والبصيرة العمياء، وبين الادراك العميق والادراك السطحي، وبين بحار المعرفة الغزيرة الشرة، وبين سواقيها وجداولها، تقوم الحواجز وترتفع السدود، وتنجم بين هؤلاء العمالقة، وبين مجتمعاتهم فواصل زمنية من عدم الفهم الموقت تباعد بينهما، وتناى ببعضها عن البعض الآخر.

ويسبب من هذا البعد والجفاء تفيض أحزانهم وتمتليء قلوبهم بأسى
الغربة وآلام الغرياء، وتتملكهم رغبة ملحة بالعودة والانسلاخ بهدوء من بين
صفوف مجتمعاتهم ليلقوا بأنفسهم المضناة في أحضان الصمت، ويهددوا
أفكارهم المسهدة في مهاد السكينة والهدوء، ويعدوا - لبعث الوقت - عن
صخب وضجيج المجتمعات الى الصحارى والقفار، والكهوف والمغاور، وقن
الجمال وضفاف الانهار، حيث الطبيعة المتألمة الطاهرة النقية بصمتها
وجلالها لتضمهم الى صدرها ضمة الأم الرؤوم، ولتمسح جراحات غريتهم
وتكفكف دموع أشجانهم وتؤنس وحشتهم، ثم لتأخذ بأيديهم وتدخل بهم
من أوسع أبوابها الى رحاب الحضرة القدسية حيث يقعون سجداً على
أعتاب ملك الملوك، أنيس المتوحدين، ورفيق المتفردين ومبدد وحشة
المغتربين.. ومن هناك - من هذا القرب الإلهي - يبدأون من جديد
استعدادهم للإبحار من شاطئ السكينة وضفاف الصمت الى عالم
الانسان، وأغوار النفس البشرية، للكشف عن مجاهلها، والتنقيب عن
جواهرها ولآلئها الخبيثة الدفينة

وهكذا أنت ايضا - يا رجل الروح العظيم - تعاني المعاناة نفسها،
وتصطلي بنيران التجربة ذاتها، فتشعر - شعور الغرياء - أنك بحاجة الى
منتجع روحي يعيد إليك شتات نفسك الممزقة ألما ويرد عليك دَوب قلبك
الذي يشخب دماً، ويهيبك من السكينة ما تستطيع معها أن تتلمس
مواطيء قدميك، ومواقع سيرك في طريق كفاحك العذب من أجل الايمان
الذي كثر خصومه، وإشتدت ضراوة أعدائه، فتعترم هجر "أنقرة" العاصمة
الجديدة في ربيع سنة 1923م وهي تضج وتصيح بأصوات الباطل المنكرة

وتنوء بالقسمة من عصابة الأوغاد الذين يحيطون بكبيرهم إحاطة السوار بالمعصم، تظللهم تلك السحابة السوداء الكالحة من الحقد الدفين على الإسلام والإيمان، نافثين من أرواحهم الكابية ذلك الليل الأوروبي الفاحش الذي عرفوه ومارسوه في مواخير "أوروبا" المتخلعة وحاناتها، زاهين بقبعاتهم زهو الديكة بأعرافها، ظانين هذه القبعات يمكن أن تستر على الرؤوس الجوفاء المنخورة التي يحملونها فوق مناكبهم..

وتتوجه الى مدينة "وان" حاملاً في ضميرك سرّ آلامك المبرحة وطاويبا ضلوعك عل ذلك "البريد السرمدى" الذي تريد إيصال رسائله النورانية الى كل بقعة من بقاع تركيا ومن ثمة الى كل زاوية من زوايا الأرض..

وتعتلي- يا عاشق الأعالي - جبل "أرك" المتلفع بالضباب، والغارق بالصمت، وهنك فوق سفحه تقضي أيام الصيف ولياليه في خرائب معبد مهجور، فتوغل في التأمل والتفكير، وتمضي في العبادة والتهجد والذكر، فتغمرك السكينة، تحفك الأضواء ويسربلك الصفاء ويغسلك النقاء وتتهاطل فوق روحك الأنداء، وتحسّ برحمة الهية غامرة تلف كياناتك كله، وبلطف رباني يتغشى وجودك جميعه، فتأنس بهذا القرب، وينشرح صدرك وتشعر في روحك بقوى غيبية هائلة تحتف بك أن تنازل الاعداء، وتلمس في قلبك سيفاً مرهفاً حاداً نوراني النصل يصرخ بك أن تقارع الخصوم.

وعندما يترد الجو، وتهب الأعاصير معلنة عن قدوم طلائع الشتاء، تودع جبل "أرك" وتهبط الى المدينة لتقضي أيام الشتاء في بيت أخيك الشيخ "عبد الحميد" أو معتكفاً في جامع "نورشين" مستغرقاً في عذوبة التعبد والتهجد..

ولنستمع الى واحد من طلبتك يحدثنا عنك في فترة وجودك في "وان" في تلك الأيام يقول الطالب:

(كان يقوم لصلاة التهجد كل ليلة وكنت أراه وهو يصلي، فلا استطيع النوم، وعندما يراني مستقيظاً كان يقول لي:

- ما دمت مستقيظاً فتعال واشترك معي في الدعاء..

- ولكني أجهل قراءة أي دعاء..

- حسناً، سأدعو أنا وستؤمن أنت..

وكنت أغفو أحيانا أثناء الدعاء، فكان ينظر إليّ مبتسماً ويقول:

- لا بأس عليك - يا بني - لقد كنت أنا أيضاً مثلك، ولكنك ستعود

على مصارعة النوم وستصرعه).

بسالة الحكمة

وأنت في هذا الفوران الروحي العظيم الذي يلامس حافات السماء،
ويهبز ضمير الكون، ويتعالى ويرتفع ويبلغ الذروة في العنفوان والقوة ويسيل
ويمتد ويصفو ويروق حتى تتجمع عليه القلوب الظمأى، وترتاده الأرواح
العطشى، فتعلّ وتنهل، ثم تعود مرتوية منتشية..

تلك كانت حالك - يا معلم الإيمان - يوم يبلغك نبأ تلك الثورة
المسلحة التي يعتزم بعض رؤساء العشائر في الأناضول إشعالها ضد حكومة
"أنقرة" إستياء من منهجها المعادي للدين، حيث يكتب إليك بعض قادة
الثورة بشأها طالبين النصح والمشورة، ويأتي من يحاورك ويجادلك في شأنها
شفاهاً مبدياً استعداداً لا حدود له، ورغبة ملحة صادقة، في أن تكون أنت
نفسك على رأس هذه الثورة تقودها وتوجهها، فإن تعذر عليك ذلك -
لأي سبب من الأسباب - فلا أقل من أن تمنحهم موافقتك وتبدي لهم
رضالك..

ولكنك بكل هدوء تعلن لهؤلاء القادة عن رفضك لهذا العرض، وتنصح
لهم بالعدول عن الفكرة نهائياً.. ويثير هذا الموقف الراض الدهشة والعجب
عند قادة الثورة، ويخيّر فيه الناس، ويذهل له التأريخ.. لأن أي إنسان
يعادي حكومة "انقرة" ويرفع لواء المعارضة آنذاك كان ينبغي أن يصفق
رضىً وطرباً لأية بادرة معارضة أو مقاومة مهما كان نوعها فضلاً عن أن
تكون ثورة مسلحة...

أما أنت فقد كنت تدرك - بنفاذ بصيرتك وحكمتك - أن مَرِنٌ وراء "الدجال السفية" من قوي رهيبية في الداخل والخارج، لن يتركوا هذا الابن المدلل يلاقي مصرعه في عمل إسلامي مسلح يهدم كل ما بنوه عليه من أحلام وآمال، لذا ركوب هذا المركب الخطر - قبل الأوان - سيغرق البلاد والعباد في بحران من الدماء دون جدوى، وهو بالتالي سيضع - بكل حماقة - في يد الرجل كافة المبررات لإرتكاب المزيد من المذابح والتصفيات الجسدية في صفوف المسلمين كما وقع فعلاً.

إذن أهو الخوف والإشفاق هو الذي أملى عليك اتخاذ هذا الموقف الراض الغريب من هذه الثورة؟.

أهو الدم في عروقك هتف بك فزعاً من أن يتحول الى نجيع على أرض المعركة؟

أهي الروح قد أجفلت مرتعبة، فصرخت تناشدك السلام؟

أم هو القلب الواجف المرعوب، قد أملى عليك موقف الأمن والأمان؟

لا هذا ولا ذاك.. فحتى أعداؤك أنفسهم يشهدون - والفضل ما شهدت به الأعداء - أنّ في صدرك قلباً باسلاً، يخاف الخوف نفسه من الاقتراب منه، فضلاً عن الحلول فيه، وأن لك روحاً هي أشجع من الشجاعة نفسها، وأن في عروقك دمًا لو شئت أن تقطره قطرة قطرة في سبيل الله، لصرخ بك هاتفاً: ها أنذا فاسفح مني ما تريد.

ولكن الشجاعة حين تنفلت متحررة من قيود العقل والحكمة، تنقلب الى إعصار مدمر لا يدمر إلا أهله، فالشجاع الشجاع هو الذي يستطيع

ضبط نفسه وقت انفلات الضوابط كلها، والتحكم في كوابح روحه، فلا
يدع الأسد في قلبه والنسر في روحه ينفلتان وراء ذلك الجيَّشان الإنفعالي
المتمرد على كل قوانين الحكمة والعقل والمنطق..

البركان الصامت

إلى أين أنتم ماضون صُجُوداً في شعاب الجبل أيها الرجال المدججون
بالسلاح...؟!؟

ماذا تبغون...؟ ومَنْ ترومون..؟

ألا تتركون هذا النسر المتوحد المتفرد ينعم بعوالمه المفعمة بالألق الإيماني
والصحو القرآني...؟ ألا يؤلمكم تعكير صفو هذه الهدأة المباركة.. وهو يعصر
نفسه فيها، وتعصر هي فيه أنداء اللطف الإلهي الأنوس...؟
ماذا يريد سادة "أنقرة"؟ أيرعبهم صمت البراكين...؟! ويعذبهم ثبات
الزلازل؟! وتنطلق الوحوش الضارية - بعد فشل الثورة - تلغ في دماء
المسلمين، وتلعق جراحاتهم النازفة، وتنتشي سكرى بما تسمعه من تلك
الغرغرات الحزينة المختنقة والمنبعثة من الأجساد المعلقة على أعواد المشانق.

وها هو "الدجال السفية" يغتنم فرصة هبوب هذه الرياح الحمراء المواتية
لينشر أشرعة سفينته الدامية، ويبحر بها فوق لجج من دماء المسلمين إلى
جزيرة "لا دينيته" اللعينة. ولكنه رغم ذلك كله لا ينعم بالسلام ولا يشعر
بالأمان بل يظل في دوامة مخيفة من عذاب الفزع الذي يأكل قلبه، وينخر
روحه، ويسود عيشه.

فهو على يقين من أن "سعيد النورسي" في وكره على جبل "أرك" بركان
صامت تكاد حممه ونيرانه تندلع وتسيل من غير صحب ولا ضوضاء،
وطاقة إسلامية كبرى لا يعلم متى ستفجر وكيف ستنتلق؟ لذا فلا أمان له

ولا سلام مادام هذا الرجل بعيداً عن أنظار بوليسه ورقابة شرطته وجواسيسه، ويلقى القبض عليك - يأسد الإيمان - وتأتي الأوامر بتسفيرك إلى "استانبول" تحت حراسة مشددة، وتمضي في رحلتك عبر -أرضروم - طربزون- في شتاء بادر قارس البرودة، حيث كانت الثلوج تغطي الجبال، وتغمر الطرق، وتملاً الوديان. وكانت هذه المروج الثلجية الممتدة على أمداء البصر تشيع في نفسك لحظات عميقة من السكينة الجدلى الحاملة بعالم جميل طاهر كظهر هذا الثلج، نقي من الأحقاد والضغائن كنعائه، أبيض القلب والوجدان كيباضه...

وكانت أنفاس إيمانك الحارة تلعفك بالدفع وتشيع فيك الغبطة والرضى... فلم تعد تبالي -في نشوة استسلامك العذب لمشيئة الله وإرادته- وحبشية الإنسان، أو سوء الأحوال الجوية، لان الروح المتعلق بالله المتشبت بأمراس رحمته وألطافه، لن تطاله أو ترقى إليه عذابات الأرض وقساوات بني الإنسان مهما اشتدت وعظمت.

وتمكث في "إستانبول" عشرين يوماً تحت رقابة حكومية صارمة، ثم تصدر الأوامر مجدداً بنقلك إلى مدينة "بوردر" وتحط هناك عصا ترحالك، وتمضي فيما أنت فيه من عبادة وتهجد وتأمل، وكأن شيئاً لم يحدث، وكأنك مازلت في عزلتك على جبل "أرك" في "وان" لم تغادره بعد... لأنه لم تعد أمثال هذه الصغائر "النفي والتشريد والسجن والمراقبة والمضايقة" إلى آخر ما في جعبة الحكام الطغاة من أفانين التعذيب لترويض شجاعة الإنسان وسحق البسالة في الروح الراض المتمرد على طغيان الطغاة وتجرهم على بني الإنسان، أقول:

لم تعد أمثال هذه الممارسات معك تثير اهتمامك، أو تشغل بالك، أو تحول دونك ودون المضي في طريق تحلية النفس بالمعاني الكبرى التي تفيض من اسمه تعالى: "الباقى"، وكل ما عدا ذلك مما يعترض طريقك في هذا الإتجاه، فهي أمور متعلقة "بالفناء"، والالتفات إليها، والانشغال بها عبث لا يغني فقر الإنسان ولا يشبع جوعه إلى الخلود والبقاء. وقد قيدت هذه المعنى بمقولتك: "الإنشغال بالفناء فناء، والانشغال بالبقاء بقاء".

فوالله لقد أصبت المحز، ووقعت على القول الفصل. في هموم الإنسان العليا ومشاغله الذهنية والوجدانية.. وهكذا يظل فكرك ساميا سامقا محلقا في سماء المعاني القرآنية والأفكار الإيمانية رغم كل الأجواء العدوانية المشحونة بالكراهية والحقد التي أحاطك بها الخصوم، فيجري قلمك الملتهب ليسجل إحدى رسائلك الهامة "الباب الأول للنور" وهي دروس قيمة في معاني الإيمان، مستقاة من ينبوع القرآن الكريم، وسرعان ما تتلقفها الأيدي وينتشر تداولها بين طلابك ومحبيك في كل مكان من بلاد الأناضول.

الله أكبر

كنتُ في مدينة "اكردير بازار" عندما استدعيت إلى مركز البلدة في صباح أحد الأيام، ذهبت إلى هناك حيث كان "القائمقام" وأمر "الجندرمة" مع أعضاء هيئة البلدية، وبينهم رجل وقور مهيب يبدو في الأربعين من عمره، مرتدياً جبة، ويعتمُّ بعمامة بيضاء في رأسه. خاطبني أمر الجندرمة قائلاً:

إسمع يابني.. عليك أن تأخذ شيخنا هذا -مشيرا إلى "بديع الزمان سعيد النورسي" والذي عرفت اسمه فيما بعد- إلى "بارلا"... وأود أن أعلمك بأنك تقوم بمهمة غاية في الخطورة.. وعندما تسلمه إلى "المخفر" هناك، دعهم يوقعوا على الأوراق الرسمية التي تؤيد استلامهم للشيخ.. فأجبت: حسناً يا سيدي.. سأنفذ كل ما قلته لي. وخرج الشيخ في صحبتي، وقد كنت أحس بالحرَج والحياء منه.. وفي الطريق قلت له معذراً:

يا شيخنا أنت بمقام والدي.. وإني غير مرتاح من هذه المهمة ولكني أؤديها بحكم وظيفتي، فأرجو أن لا تستاء مني.

هذا بعض ما كتبه السيد "شوكت ديراى" الجندي المكلف بنقل الشيخ في دفتر مذكراته..

ويستمر السيد شوكت في وصف رحلتهم إلى "بارلا" بأحد القوارب الشرعية فيقول:

"كان الجو بارداً، إذ كان الفصل شتاءً، وكانت مياه البحيرة -التي كان علينا أن نقطعها عبر الرحلة- متجمدة هنا وهناك، وكان أحد ربابنة القارب واقفاً في المقدمة يكسر الجليد بعضاً طويلاً في يده، ويفتح بذلك طريقاً سارية للقارب الشراعي... وبدا الشيخ الوقور هادئاً تحيط بوجهه هالة هادئة من الإشراق وابتسامة وادعة ودودة ترتسم على شفثيه... ثم يضع يده على بعض متاعه ويخرجها مليئة بالزبيب والحلوى ويقوم بتوزيعها علينا، وكنت أرقبه متفرساً فيه، فلم أر طيلة حياتي -في أمثال هذه المهمات- إنساناً بهدوئه وسكينته سارحاً في التأمل والتفكير ناقلاً نظره بين مياه البحيرة الملساء، وبين القمم الشاخحة الوعرة للجبال التي كانت تحيط بنا عبر رحلتنا المائية هذه وعندما أدركت صلاة العصر، أراد أن يصلي واقفاً، فوجهننا القارب تجاه القبلة، وفجأة سمعت صوتاً يقول: "الله أكبر" لم أكن قد سمعت في حياتي كلها تكبيرة بهذه الرهبة والخشوع، أحسست معها أن كل شيء بنا ومعنا ومن حولنا قد اهتز ومسته قشعريرته خاشعة لهذه التكبيرة الفريدة، وأن الشعر في إهابنا وفي قحاف رؤوسنا قد كشف منتصباً لتلك الصعقة الإيمانية التي ضربت جماجمنا، والمنبعثة من بروق روح هذا الشيخ الجليل... وكنت أشعر أنني أمام رجل فريد لا يشبه في حركاته وأطواره ما عرفت من أحوال الشيوخ من قبل..."

كنا نحاول جاهدين أن نبقي القارب باتجاه القبلة، وعندما أنهى الشيخ صلواته التفت إلينا قائلاً:

- شكراً لكم يا إخواني.. لقد أتعبتكم..

كان متواضعا مهيبا في تواضعه، عطوفا ودودا يغمر نفوسنا بلطفه وأنسه
ووداعته ولكننا مع ذلك كنا نحس بحالة من المهابة تشعرتنا إزاءه بكل
الإجلال والاحترام..."

بارلا تصرخ

لكل شيء في هذه الحياة التي تحيط بنا نوع من الحياة يقوم كيانه ووجوده بها، وله نوع من الروح - إن صح التعبير - فيه قابلية الإحساس بالأشياء والتأثر بها، والتأثير فيها، مهما بدا هذا الشيء في ظاهره صلباً جامداً مواتاً.

والأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم - والتابعون لهم من المؤمنين الأطهار والصالحين الأبرار، قد عرفوا هذه الحقيقة وأحسوا بها، وتيقنتها أنفسهم منذ أزمان سحيقة في القدم.. فلا شيء عندهم إلا وبينه وبينهم عاطفة حب، وصلة مودة، يحبونه ويحبهم، ويصلونه ويصلهم.. فقد سبَّح "الحصى" في كَفَّه ق وَأَنَّ الجذع الذي كان يخاطب الناس منه حيناً وشوقاً إليه.. وقال في أُلْحِد: "هذا جبل يحبنا ونحبه".

فإلى أين أنتم آخذون - عنوة هذا الرجل يا جند السلطة"؟ وإلى أيّ منفى قصي تنفونه وتناون به يا عساكر سادة "أنقرة"؟ أتريدون استعداد الأمانة والأزمة عليه؟!

فليس ذلك - والله - بمقدوركم.. فبينه وبينها من التعارف والتآلف ما لا تفهمون ولا تدركون.. أتأملون ان تغروا به - في منفاه - وحوش الوحدة والغربة وهو قد راضها - من قبل - وعقد بينه وبينها من أواصر المحبة والمودة ما لا يمكن أن يخطر لكم على بال؟ وتريدون من "بارلا" منفاه الجديد أن

تنضم إلى صفكم تجافيه وتناى بجانبها عنه، وتبدي له من الصدود والهجران ما يقضّ مضجعه ويؤرق باله، فلا يطيب له فيها مقام أو يسعد به مجلس؟ ولكن (بارلا) سرعان ما تخيب ظنكم وتبدد آمالكم، وتقلب حساباتكم الماكرة رأسا على عقب.. وهاهي البلدة الوادعة توطئ للضيف الكريم أكنافها وتفتح له قلبها ويهتر له روحها، وإذا بجبالها وأشجارها وينايعها يظللها عيد روحي كبير ومهرجان إيماني عظيم، وهي ترى بعين بصيرتها الخضرة الماتعة في ربيع قلبك -أيها الرجل الصالح- وتطلع على ذلك الصفاء القرآني المتألق في سماء روحك فتهترز أريجيتها وتمحضك خالص ودها، ومرهف شعورها، وتحط رحالك في "دائرة" صغيرة تتكئ بدلال الطفولة البريئة على صدر الطبيعة الدفاق بلبن اللطف الوديع..

فهي تغفو -إذا عَفَتْ- عندما يجنحها الليل، وتعنتقها أحيلة الظلام الكوني على صوت الخزير الشجي والهسهسة الناعمة الوادعة لمياه نبع صغير يجري قبالتها ويكاد -من قربه- يغسل قدميها بأمواه صباح مساء..

وتستيقظ -إذا استيقظت- عندما يتنفس الفجر الوردى الندي على أعذب الألحان والتغايد التي تطلقها في لوعة الحنين المشتاق العشرات من الأطيوار من فوق شجرة "الدلب" العتيقة السامقة المتشابكة الأفنان والتي تظل هذه "الدائرة" في حنوّ ومحبة..

وبذوقك الشعاعي المتأنق الرفيع. وبجبك المولّه بجمال الطبيعة.. وبكل تعلق روحك بالسموّ والأعالي.. تطلب من نجار القرية أن يعلو جذع الشجرة، وأن ينجد لك فوق جذعها وبين أغصانها غرفة خشبية، تطلع

إليها على درج خشبي وتقضي في هذا العش الجميل معظم أوقاتك في
فصلي الربيع والصيف متعبداً ومتأملاً ومتفكراً.

كان نومك -إذا نمت- سنواتٍ وغفوات.. فأنت لا تعرف نوم المتعطلين
والخليين الثقيل.. وكيف يطيق النوم منْ أشرقَتْ في أعماق روحه صحوة
الإيمان الكبرى إلا إذا غلبه النوم على جفنيه مغالبةً، وحط الكرى على
معاهد عينيه حلسةً بين الفينة والفينة..

وكان طعامك ملاعق قليلة من حساء مع كسرات من خبز يتردد به
عليك أحد جيرانك الأذنين.. وتأبى إلا أن تنقده ثمنه، لأنك قد آليت على
نفسك -من قبل- ألا تقبل من أحدٍ كائناً من كان أعطيته دون مقابل..

ويثير إعجاب أهل "بارلا" ما في حياتك الزاهدة من معنى التأبي على
أي نوع من أنواع القيود البشرية، وما في سلوكك العزوف من رغبة الإكتفاء
من الحياة بالقليل القليل الذي يقيم الأود ويحفظ عليك الحياة، ولكنك
مقابل ذلك تريد إغناء الحياة، وإثراء القلب والروح بالمعارف الإيمانية التي
ترقى بالإنسان نحو الطهر والقداسة والجمال...

ويتساءل الناس مشفقين.. ألا ينام هذا الشيخ المتعب المريض..؟ ومتى
ينام إذا نام؟ ومتى يصحو؟ فقلّما يمر واحد منهم في ذهابه أو أيابه من تحت
الشجرة في أية ساعة من ساعات الليل أو النهار إلا ويفجؤه من "علية
الشيخ" همهمة أو حركة تنبئ عن يقظته وتشير إلى صحوته..

ترى ماذا يفعل هذا الإنسان الغريب الأطوار تحت جنح الظلام؟! ولماذا
يطوي الليل ساهراً؟ وأي سرٍ وراء ذلك؟

وكيف ينام مَنْ تدور أكوان القرآن العظيمة في فلك قلبه؟ وكيف يهجع مَنْ تزدحم عوالم سورة وآياته وكلماته في فضاء ذاته..؟ وكيف يداعبُ الوسن عين مَنْ يصبح وبمسي القرآن روح حياته وماء وجوده؟! فلو اعتصر فؤاده، وحُلِبَّتْ روحه لما إنسكب منهما غير أدب القرآن وحكمته وخلقه ووهج نوره.

فهو - في هذه الليالي الهادئة الجذلى - يعتصر قلبه، ويحلب روحه في قوارير من نورٍ ويقدمها للعطاش من إخوانه البشر، فما يكاد يرتشف منها الإنسان رشفة حتى تتحول في دمه إلى سياج نوراني لا تقوى على اختراقه أوهام الكفر ولا ضلالات الملحدين، تلك هي "رسائل النور" التي عكف على كتابتها أو إملأها على تلامذته مدّة الأعوام الثمانية والنصف التي قضاها في "بارلا" .. هذه البلدة التي يمكن أن نَعُدّها بحق المدرسة النورية الأولى التي شَعَّ منها نور الرسائل إلى كل طرف من أطراف "تركيا" .. ولم يكن أهل "بارلا" المتوجسون خيفة يلتقون "الرجل المنفي الغريب" إلاّ وهو سائر في طريقه إلى منزله فوق جبل "أكردير" في الأصباح، أو وهو هابط منه إلى "دارته" في الأماسي .. ولكنهم - مع ذلك - كانوا يشعرون شعورا غامضا بالراحة والطمأنينة منذ حلّ هذا الرجل بين ظهرانيهم، ويلمسون إنشراح صدورهم للقياء، ولهفة نفوسهم للتحدث معه، والاستماع منه، وأنهم لولا رقابة المخبرين وتجنس المتجسسين لهرعوا إليه وأخذوه بالأحضان، وأدأبو أنفسهم في سهوم عينيه العميق المستقر الحاد، ولنهلوا من منهله وشربوا من مشربه .. ولكن أحداً منهم لم يكن يجرؤ على حوض مثل هذه

المغامرة المحفوفة بالمخاطر، واقتحام ذلك الطوق البغيض المضروب حوله من قبل عصابة من المخبرين ورجال الشرطة السريين..

و"بارالا" تصرح بأهلها.. هيا تقدموا يا أبنائي.. اكسروا الطوق.. واخترقوا الحصار.. ومدوا الجسور بينكم وبينه.. أليس في صدر رجل منكم قلب باسل يمشي إليه، فيفتح بذلك البوابات والمسارب لحركة "الإيمان" كي تأخذ طريقها إلى صحارى القلوب والأرواح في أرجاء "تركيا" المهيضة الجناح، والتي يلتهم روحها الحزين ذلك الداء السرطاني الرهيب الذي زرعه فيه أعداء الإيمان..

ويقدم "سليمان" ابن "بارالا" البار، فيكسر الطوق ويحترق الحصار، ويقترب من الشيخ في ساعة ضيق ويدخل معه "دارته" ويشعل سراج غرفته، ويصبح بعد ذلك من خُلص تلامذته، وإيكم القصة كما حدثت:
في يوم صيفي جميل مشرق، خرج "الأستاذ" من دارته متوجهاً إلى الجبل، وما أن وصل "منعزله" هناك وجلس يستريح حتى تجمعت غيوم سوداء حجبت الشمس، ونشرت الظلام في السماء. فاكفهر الجوّ، وهبّت عاصفة ممطرة، وانفتحت أبواب السماء كأفواه الثرب تصبّ الماء صبّاً.. كان وحيداً..

ولم يجد ما يتقي به المطر سوى أيكّة التجأ إليها محتمياً بأغصانها الملتفة لتحميه، بقدر ما يمكن للأغصان أن تحمي الإنسان من ماء منهمر من السماء.. ثم خفّت حدّة المطر، فانتهاز الأستاذ الفرصة وقفل راجعاً إلى البلدة، وقد تبلّل من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه... وكان وهو يسير يخوض في الحفر والبرك التي خلفها المطر، وتغوص قدماه في الأوحال والطين، وما لبث أن تمزّق خُفّه

وتعدّز عليه المشي فيه، فأضطر الى أن ينزعه ويحمله بيده...
ودخل البلدة يغوص بجوربه في الماء والطين والوحل.. وهناك بالقرب من
النبع -وبعد توقف المطر- كان جمع من أبناء "بارلا" مجتمعين يتبادلون
الحديث عندما وقع نظرهم فجأة على هذا المنظر المؤثر، منظر العالم الجليل
المهيّب.. المنفي.. الوحيد.. المقاطع من الجميع.. وهو يحمل خُفّه الممزق
بيده ويمشي متعثراً في الطين بجواربه وهو يجر أذيال جبّته المملطخة بالطين
وهي تقطر ماءً...

وصمّت الجميع... وران على نفوسهم السكون... وظلّلتهم سحابه
كثيية من الأشفاق والرتاء..

وتحاذبتهم عواطف متضاربة.. عواطف إنسانية شريفة تغريهم بالإندفاع
لمساعدة الرجل ومدّ يد العون له في ساعة الضيق الحرجة هذه.. ومشاعر
الخوف من عيون الحكومة ومخبريها الذين يترصدون حركاتهم.. فظلّوا في
مكائهم جامدين تشلّ حركتهم الحيرة بين الإقدام والإحجام..

وفجأة يندفع من بين الجمع الذاهل. "سليمان" ويصل إليه ويأخذ الخفّ
منه ويغسله بماء النبع مما علق به من وحل وطين، ثم يرافقه حتى "دارته"
ويصعد معه إلى غرفته، ويساعده في التحلل من ثيابه المبتلة.. ويعينه على
إصلاح شأنه..

وظل السيد سليمان بعد هذه الحادثة في معية الشيخ يرضى شؤونه
ويتلمذ على يديه طيلة ثماني سنوات كاملات...

الوجود فكرة

الوجود فكرة ما في ذلك شك، وهو فكرة الغيب وعقله المسكوب في الماهيات والصور فما من ذرّة تعيش في هذا الوجود إلّا وهي إمّاءة أو آية - كما يعبر القرآن الكريم- إلى صنو ذكي لها في هذا الفكر الغيبي المهيمن المحيط.

والقرآن الكريم بمدّنا بجملة كبيرة من القضايا الإيمانية الغيبية، إبتداءً بالموت والقبر والحشر والحساب، وانتهاءً بالخلود الأبدي في الجنّة أو النار، ثم يعود ويلفتُ أنظارنا في كثير من آياته وسوره إلى ما يرمز لهذه القضايا الإيمانية ويؤمّي لها من ظواهر قائمة في عالم الشهادة المحسوس، ليسهل على الإنسان المتأمل التدرج المنطقي في التصور من هذا المحسوس القريب إلى ذلك المجرد الغائب، ومقايسة الغائب الغيبي على الحاضر المشهود حفاظاً على الخيال الإنساني من التبدد والضيعاع في متاهات من التخيل السارح بلا ضوابط أو حدود.

ولكن الإنسان لكونه "شيئياً وتصورياً" بطبيعة تكوينه، فإن عوالم "الأشياء والصور" المتداخلة المتزاحمة المحيطة به من كل جانب، والتي يعايشها في يوميات حياته كل يوم، كثيراً ما تصيبه بالدوار والقرف، فلا يعود قادراً على الوقوف على أرضية صلبة من التأمل الهادئ، والنظر البعيد. وقد تطفى هذه "الشيئية والصورية" وتشكل أمام فكره جداراً سميكاً معتما يصيبه بقصر نظر حاد فتعشو بصيرة روحه وتنغلق منافذ قلبه وتتعطل

قنوت فكره، فيعجز -بالتالي- عن رؤية ما وراء الأشياء والصور من أفكار ومعانٍ، هي الأساس الأصيل في كل وجود على الإطلاق.

وتلك هي -في الحقيقة- مأساة الإنسان المعاصر، وهذا هو البلاء العظيم الذي حذرت منه، وتبّهت إليه -أيها الأستاذ- عندما كرّست جملة من "رسائل النور" في نقض الأساس الخاطيء، وتبديد الوهم السادر الذي تقوم عليه هذه النظرة الكليّة الحولاء.

فأتى للإنسان اليابس المتصلب الذي لم تتعمق جذوره في نحر الحياة البرود، أن يمتدّ ويتسع لاستيعاب حقائق الإيمان، واحتضان أفكاره العظيمة التي ما اعتنقها انسان إلاّ وجعلت منه كوناً عظيماً تتألق في سمائه شمس المعارف وتسبح في فضائه مجزّات الوعي الشامل الواسع..؟

وأىّ للأرواح الصلبة الجاسية التي تغذوها سموم الصحارى، وتسقيها الرياح السواقي أن تتأوّد وتهتّزّ وتجتو متخشعة لتعلّ من بحار الغيب، وتنهل من معين فكره..؟

رجالٌ هذا شأنهم وتلك بيوستهم، تندلع ألسنة جهنّم في نفوسهم، وتتأجج نيران السعير في أرواحهم ليس سهلاً أن يساغوا عذوبة الإيمان في قلوبهم، أو يطيب لهم ترشف معانيه وأفكاره في أرواحهم.

فهم قوم منكرون. تنكرهم نفوسهم، وتخفّوهم أرواحهم، وتتوجع منهم الأرض التي تقلّهم، وتمجّهم السماء التي تُظلّهم، ويغلق الوجود أبواب معانيه في وجوههم، وتوصد الحياة منافذ أفكارها إزاءهم فكيف يستطيعون الفهم عن الوجود؟ وكيف يطبقون الوعي عن الحياة، وأىّ لهم أن يدركوا ما ترمز إليه من معانٍ وأفكار؟ فلا جرم يحسّون بظلام الوحشة والغربة في هذا العالم

ولا غرو في تعمق شعورهم بالوحدة، حتى ليغدو وجودهم نفسه عبثاً ثقيلاً
وحملاً تنوء به كواهلهم، ويتمنون لو تواتبهم الشجاعة يوماً ما للتخلص منه
والإلقاء به بعيداً في مهاوي العدم..

أما أنت -يانزيل "بارلا"- فقد غدت الطبيعة الجميلة بأرضها ونبتها
وشجرها وزهرها، شقيقة روحك وخذينة فؤادك، ورفيقة دربك، تفضي إليك
بسرها، وتكشف لك عن دخيلة أمرها وتساورك بمعانيها وأفكارها..

تلمسها -تلمس المشوق- باليد والعين والفكر والخيال، تلك اللمسات
التحسسية المفعمة بالركة والإرهاق. فتتعرف عليها في عنفوان قوتها، وعرامة
سورتها، وتلاحظها في هدواتها وسكناتها، وتشهد -عن كذب- ديب الموت
في أوصالها، وسريان سكينته في جوارحها إذا حل الشتاء البارد المثلج،
وترقب حركة الحياة وروحها ودفأها وهي تسري في الجسد الهامد والجمثة
الهاجعة، ويروعك انبعاثها العجيب من بين أكفان الجليد خلقاً سوياً مؤراً
بالجمال والرواء إذا ما هبَّت نسائم الربيع وأشرقت شمسها الدافئة الحنون..

هكذا إذن هو الموت ثم البعث والحشر... ومثل هذا يكون موت الإنسان
في شتاء الدنيا وبعثه وحشره في ربيع الآخرة.. ونود -هنا- أن نسأل أولئك
المنكرين لبعث الإنسان وحشره، لماذا يشنّد الإنسان وحده عن هذه السنّة
الكونية المشاهدة المكرورة التي تتكرّر كل سنة أمام عيوننا وأبصارنا؟!!

فهو -الإنسان- يموت ويدفن تماماً كما تدفن حبة القمح، وبذرة
الباقلاء، ونواة الكرم، وفسيلة النخيل، وغصن الزيتون، وشجيرة الورد،
وبيوض البعوض والذباب والنمل والفراشات، إلى ألوف المخلوقات الأخرى

وملايينها من نبات الأرض وهوامها ودوابها، ثم تبعث حيّةً من جديد في الربيع التالي.. إلاّ الإنسان في ظن المنكرين والجاحدين.. ولكن لماذا هو وحده وهو أشرف مخلوقات الأرض وأسمها فكرياً وشعوراً، وأعظمها إدراكاً ووعياً..؟! لماذا يحرم -هو وحده- من شرف البعث ويحال بينه وبين استئناف الحياة من جديد في عالم أرحب وأنقى وأجمل من عالم الأرض هذه؟!!

أليّناً أحدًا من الناس لم يشاهد أو يرَ رأي العين، من الألوّف من السنين وحتى اليوم قبراً ينشق عن إنسان حي يقوم من مرقده نافضاً عنه التراب، ليبدأ استئناف الحياة من جديد.. ولكننا يمكن أن نشاهد ونرى رأي العين قبور الأرحام وهي تقذف الملايين من الأجنة الممتلئة بالحياة كل يوم بل كل ساعة..

إذن، ألا يمكن لأرحام القبور أن تفعل نفس الفعل حين يأذن الله للأرض أن تخرج أبقالها وتقذف بمكنوناتها؟

ومن قال: إن ربيع الإنسان قد أتى ليعث من في القبور من البشر؟! فالزمن نسبي، وهو يختلف من مكان إلى آخر، ومن مخلوق إلى آخر، فالساعة الواحدة في عمر الإنسان قد تعدل سنة كاملة وربما أكثر من عمر بعوضة أو نملة.. ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة الحج؛ 47)، والبعض من أيام الله يعدل مئة ألف سنة، وبعضها الآخر يساوي خمسين ألف سنة، كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم..

وما ملايين السنين على الارض إلا لمحة خاطفة، ولحظة عابرة، بالقياس إلى عمر الأبدية المهول.. والفناء لهذه الأرض قدر مقدور لا مناص منه، وهو آتٍ لا ريب فيه، هذا ما تقرره الأديان جميعاً، ويؤكدّه اليوم علماء معتبرون في العلوم الفلكية والكونية..

وذلك - إذا ما حدث - فهو الشتاء الكوني الأعظم الذي سيلف معه الوجود الإنساني بأسره، وتلك هي قيامة الأرض التي سيعقبها ربيع الإنسان، باعث الحياة من جديد في جسد البشرية الميتة، لتقوم من مرقدتها ولتحشر في صعيد واحد إلى حيث الحساب والجزاء ثم الخلود الأبدي في الجنة أو النار..

وحيننا المتأصل في أعماقنا إلى "الخلود" مسألة تثير العجب، وتخير العقول... لماذا هذا الحنين؟ وكيف تعمقت وتأصلت جذوره في أرض وجودنا؟ وكيف جاء؟ ولماذا؟ ولماذا مثلاً لا نحسّ مثل هذا الحنين إلى العدم؟ ولماذا نخاف الموت، وندفعه عن أنفسنا بقدر ما نستطيع؟

إن الحنين إلى الخلود، والتفتيش عنه، والرغبة الملحة فيه، دليل - أيما دليل - على وجود "الخلود" مثلما يكون تفتيش الجنين النازل من بطن أمه لحظة نزوله عن لبن الأم دليلاً على وجود هذا اللبن، وكما يكون إحساسنا بالعطش دليلاً على وجود الماء..

ولأن العدم معدوم، وهو لا وجود له أصلاً، فلن نرى انسياً سويماً يتمناه أو يشتاق إليه، فهو لا يذكر - إذا ذكر - إلا في المناقشات العقلية، والفرضيات المنطقية التي يوردها المناطقة والفلاسفة، مقابلاً للوجود،

وتوضيحا لمعناه، كما يذكر الأسود إلى جانب الأبيض، والليل إلى جانب النهار، والقصير إلى جانب الطويل، ومثلها العدم إلى جانب الوجود..
على مثل هذه الأفكار والمعاني تدور "رسالة الحشر" التي أملاها على تلامذته في "بارلا" وقد تركت أعمق الأثر في عقول الآلاف من الشباب الذين سعدوا بقراءتها.

الممكن وغير الممكن

الإنسان هو ميدان الإيمان، وساحة جهاده، وقلبه مهبط أنواره، ووجدانه هو التربة الصالحة لغرس شجرته واستنبات أزاهيره..

فحيثما يكن الإنسان، يكن ظرف الإيمان الأعظم، وفرصته الكبرى، لكي يعمل عمله، ويحدث أثره، ويترك بصماته الواضحة على حياته.

ولكون (الإيمان) يتعامل مع الإنسان مباشرة فهو في غنى عن أية ظروف أخرى خارج الإنسان نفسه - لكي يضطلع بمهمته وينهض بأعباء رسالته - سوى صفاء القلب، وشفافية الروح، لأنهما بوابة الإيمان المشرعة إلى الإنسان - ومنفذه الذي ينفذ منه إلى عمق أعماق وجدانه.

ولكن ما هو الممكن الذي يستطيعه الإيمان؟ وما هو غير الممكن؟ وكيف يكون أمر ما في حدود استطاعة رجل الإيمان؟ ومتى يكون في حكم المحال؟

ونسارع فنقرر: إن كل شيء ممكن. ولا شيء غير ممكن في نظر الإرادة الإيمانية التي لا تعرف اليأس والقنوط، ولا ينبغي لها أن تعرفه: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ (سورة يوسف؛ 87) فالإيمان قادر على البدء من مرتبة "الصفير" في كل مرة عندما تتعرض مراتبه المتقدمة الأخرى لأي نوع من أنواع الهدم والتخريب. ودائرة "المستحيلات" نفسها تتضاءل وتضيق وتنحسر أمام مدّ الإرادات الإيمانية الصلبة التي تستمد زيت محرّكاتها من دماء القلب المتفجّر بالإيمان.

والذين يَحْمَلُونَ "الزمن" مَعَبَةً انحسار الإيمان، وحفاف بعض سواقيه
ومنابعه هنا وهناك، جدّ واهمين، فالعلة ليست في الزمن بقدر ما هي في
أولئك المتصدّين للعمل الإيماني الذين لا يحسنون تناول "الزمن" من يد الله
سبحانه وتعالى بالإحترام اللائق والإهتمام الشديد، ويكسلون عن ملاحقة
تياراته الجديدة السريعة، ويتأخر فهمهم لما يقذف به إزاءهم من صنيع الجدّة
والابتكار، فيتسرب هارياً من بين أيديهم، ويفوتهم -عند ذلك- معالجته
بالمفاعل الإيماني العظيم ليتمّ هضمه واحتواؤه ثم صبّه في خاتمه المطاف في بحر
الإيمان الممتد بين آزال **ث**... أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى **ب** (سورة الأعراف؛ 172)
وآباد: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ﴾ (سورة الحجر؛ 46) هذا الزمن الإيماني المضمخ
بأنفاس مئات الألوف من الأنبياء والأولياء والمؤمنين والصدّيقين والشهداء،
والذي ورد في الحديث القدسي عنه: "يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي
الليل والنهار"¹ فلمحات الدهر ولحظاته مليئة مغمورة وملونة بالتجليات
الإلهية المتتابعة **ث** كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ **ب** (الرحمن؛ 29) والتي لا تخفى على كل
ذي قلب ذكي لمّا، وهي في المحصلة النهائية ترفد "الإيمان" وتثري وجوده،
ولا يمكن أن تكون ضده أبداً.

ومعلوم أن "المؤمن" اسم كريم من أسماء الله الحسنى، منحه الله تعالى
-تفضلاً وتكرماً- للخلاص من عباده فالمؤمن الحق - بما يستمده من
تجليات اسمه- سيد ظرفه، وقائد وقته، والماسك بزمام زمانه فهو قادر
-بقدرة اسمه تعالى- أن يعبر أمواج الزمن مهما فاضت وفارت وعلت. وأن

¹ البخاري، كتاب تفسير القرآن، تفسير سورة الجاثية (45) 1، كتاب الأدب 101؛ مسلم، كتاب الألفاظ
من الأدب وغيرها 1-2.

يقهر صعباه ويروض جامحات أيامه ولياليه، شاقاً طريقه إلى الإنسان في أي زمان ومكان.

حتى لو قُطِعَ لسان "المؤمن" فلم يعد قادراً على النطق، وشُتِلت يده فلم تعد قادرة على الكتابة، لكانَ في نبضات قلبه وحدها ما يكفي لإسماع صوته، وتبليغ رسالته.. ذلك هو منطق "الإيمان" وتلك هي أساليبه ووسائله في فتح اقفال القلوب وكسر أغلال العقول.. أرأيت إلى الماء السلسيل - رغم هدوء حركته، وصمت سريانه - إلا إنه مع ذلك لا تقوى السدود والقيود أن توقف زحفه، وتمنع سيره، فهو إذا عاقته العوائق، وانتصبت في طريقه الموانع لا يعدم وسيلةً ومنفذاً ينفذُ منه، لينفلت خفيفاً رشيقاً من بين الجدر الصمّاء والصخور الصلدااء، ماضياً في طريقه اللاجب مخلفاً وراءه تلك السدود والموانع تشكو ضعف حيلتها ووهن قوتها.

وقد بدأ تيار "الإيمان" المحاصر - في تركيا - يفعل الفعل نفسه، فيكسر الطوق ويحطم الحصار المضروب حوله من قبل أعدائه وخصومه، ويستقطب الشباب ويكسب الأنصار من مختلف الطبقات والأعمار، ليدخلوا إلى مدرسته أفواجاً ويتلمذوا على يديه، ويتربوا على معانيه وأفكاره وآدابه. ونجاح الإيمان في فك الحصار عن نفسه لا يروق الأعداء والخصوم، بل يثير حفيظتهم ويؤجج حقدهم، ويسعر نيران الغضب الجامح في نفوسهم.

ولكن هؤلاء الأعداء والخصوم لا يفهمون أسرار الإيمان، ولا يلمون بمنطقه ولا يعرفون أساليب عمله، وطرائق تقدمه فهم يخطؤون خطأً فاحشاً عندما يخضعون "الإيمان" وأهله لمعاييرهم الدنيوية، وحساباتهم الأرضية ومقاييسهم القاصرة المحدودة الضيقة، تماماً كمن يريد من المسطرة أن تقيس طول "المحيط"

وعرضه. ويطلب من الفرجال أن يرسم قطر "الكون" .. ولما كان "الإيمان" أكبر وأعظم وأجل من أن تحصيه مقاييسهم -وتحسبه حساباتهم، فهم- لتغطية هذا العجز الفاضح والقصور المشين يصورون لأنفسهم ولبسطاء الناس من شعبيهم مسألة تقدم الإيمان واختراقه للحواجز والسدود، وكأنه مؤامرة كبرى قد دُبِّرَتْ بليلى، وخطر مهول تسنده قوى أرضية هائلة داخل الحدود وخارجها - متغافلين بطبيعة الحال عن قوة السماء التي يرتبط بها الإيمان، ويستمد منها عناصر قوته - فلا بدّ إذن - من الوقوف أمامه بحزم، وسحقه قبل استفحال أمره وتفاقم خطره...

ويؤتى بك -في كل مرة- إلى أروقة المحاكم مع ثلة من تلامذتك في العديد من مدن "تركيا" لتجيب على التهم الموجهة إليك:

- أنت متهم بتأسيس جمعية سرية تتستر بالدين وغرضها تقويض الحكم والإستيلاء على السلطة بالقوة..

- أنت معادٍ لأفكار الدولة وقوانينها وتحرض الناس على تحديها..

- أنت.. وأنت... وأنت...

ومَنْ أنا؟ مَنْ أنا - أيها القضاة المحترمون...؟ أحقاً تريدون محاكمتي..

أم تريدون أن تحاكموا "الإيمان" في شخصي الضعيف..؟ ومن أنا سوى

الإيمان المتحرك في ذرات دمي، وجزئيات كياني..؟

تقولون: أنت.. وأنت.. وليس لي -والله- من الأمر شئ. إنه الإيمان

هو الذي ينطق على لساني ويحرك جناني.. لا تخافوني.. ولكن خافوا القدر

الإلهي الذي يسخرني لخدمة الإيمان.. والدفاع عن مبادئ القرآن.. وترتعد

فرائصكم مني.. ولكن - بحق أقول لكم - فلترتعبوا وتدعروا وترتجفوا
قلوبكم هلعاً ورعباً لغضب الله الذي جعل من "سعيد النورسي" - هذا
الإنسان العاجز الضعيف المائل أمامكم - سيفاً مصلتاً على رقاب الكافرين
ورؤوس الجاحدين والمنكرين..

تريدون إعدام الإيمان من الأرض..؟! وتبغون القضاء على خدامه
وتلامذته..؟

حسناً اعدموا الموت نفسه إذا استطعتم.. وانفوه عن هذه الأرض.. فما
دامت المقابر في كل مكان من العالم تستقبل الآلاف من الموتى كل يوم،
فسيظلّ الإنسان في حاجة إلى الإيمان كحاجته إلى الهواء - لأنه هو عزاؤه
الوحيد في رحلته الحزينة إلى ظلمات القبر..

تريدون مطاردة الإيمان.. وأين؟ وكيف؟.. إذن شقوا الصدور وانتزعوا
منها القلوب وتلمسوه فيها - إن استطعتم - في الشغف والضمائر والمهج
والأرواح.. فهو الشيء الوحيد الذي لا تستطيعون الإمساك به لتودعوه
سجونكم ووزاناتكم...

لقد جئ بي إلى هنا بتهمة أنني إنسان رجعي أتستز بالدين للإضرار
بالأمن العام..

وأنا أقول لكم: إنَّ إمكانية عمل شيء لا يستدعي وقوعه بالضرورة، ولا
المحاسبة عليه، فعود الكبريت يمكنه إحراق بيت بأكمله، ولكن وجود عود
الكبريت في جيبي ليس معناه أنني أريد إشعال النار في بيت ما، وبالتالي لا
يعني ارتكاب أية جريمة..

إن انشغالي بعلوم الإيمان والإسلام لا يخدم إلاّ رضى الله تعالى، وحاشا
أن يخدم أيّ غرض آخر..

لقد تساءلتم: هل أنا ممن يعمل على تأسيس طريقة "صوفية" جديدة
تضاف إلى بقية الطرق؟.. وإنني أقول لكم: إن عصرنا هذا هو عصر
"حفظ الإيمان" لا حفظ "التصوف" لأن الكثيرين من الناس يدخلون الجنة
وإن لم يسلكوا في حياتهم طريق التصوف، ولكن أحداً لا يدخل الجنة بغير
الإيمان..

وتقولون: من أين تأتي بالمال اللازم للاتفاق على شؤون جمعيتك؟..
وأنا بدوري أسأل هؤلاء السائلين: ما هو دليلهم على أنني أقوم على رأس
أيّ نوع من أنواع الجمعيات كما يتوهمون، أو أنني أمارس أيّ نشاط يمكن
أن يحتاج إلى المال.. فإذا كان عملي التعليمي مما يؤخذ عليه القانون لوجب
أن يكون آلاف المعلمين في تركيا واقفين اليوم إلى جانبي في هذا القفص هم
وتلامذتهم...!

الحرية و جلادوها

كان الإسلام – وما زال – مستعداً لمنازلة الأفكار والأيدولوجيات التي تعاديه، شريطة أن يجري هذا النزال على ساحة مكشوفة، وفي النهار وتحت أشعة من الفكر النزيه..

ولكن مما يثير الحزن، أن كل الطعنات الموجهة للإسلام هي طعنات متلصصة جبانة يأبأها خلق الرجولة، وترفضها تقاليد الفروسية.. وإلا فاية شجاعة هذه التي تبيح لنفسها تقييد الخصم وتكبيله، وخنق صوته، ثم الإتهام عليه طعناً بالمدى والسكاكين..؟! وأية بطولة هذه التي لا تنشط لإستعراض عضلاتها إلاّ تحت جناح الظلام، وعندما يتمّ التعقيم الشامل على منابع النور في هذا الدين العظيم..!؟

وكان "النورسي" ينتفض في محبسه انتفاضة غاضبة، ويزار زئيراً مرعباً كلما بلغ مسامعه – في ليل تركيا – عواء أعداء الله، ونباح الفاسقين المسعور على الإيمان والإسلام...

وكان يُحسّ بما يشبه الحمى تسري في كيانه، وتدب في عروق دمائه، فيقوم من مكانه، ويذرع المكان الذي هو فيه جيئةً وذهوباً، مستغرقاً في تأملات فكرية غاية في العمق ومتوغلاً في أمداء ذهنية بعيدة، مستحضراً بذلك كل قواه النفسية والفكرية ومستجمعاً كل طاقاته الإيمانية، ثم يشرع بإملاء ردوده التي تدحض أفكارهم، وتنسف – من الأساس – مرتكزات عقائدهم، وتفنّد ما يأتون به من أباطيل، وما ينشرون من أوهام...

ويسارع الحضور في مجلسه إلى كتابة ما يمليه عليهم، حتى إذا انتهى من إملائه، وانفضّ المجلس، عكف كلّ مَنْ كان حاضراً بمجلسه ذاك، على كتابة عدة نسخ من هذه الرسائل، وقام بتوزيعها على أقاربه ومعارفه، وكان كل واحد من الأقراب والمعارف يكتب عدة نسخ منها ويقوم بتوزيعها على الآخرين، وحتى النساء والفتيات اللواتي كنّ لا يعرفن القراءة والكتابة. كنّ يستنسخن هذه الرسائل كما لو كنّ ينقشن نقوشاً أو رسوماً على أغصان المشارف، وأفرشة المقاعد.. وهكذا كانت تنتشر الألوف من هذه الرسائل المخطوطة بالأيدي في طول البلاد وعرضها، ويتلقفها الناس بكل حماسة واهتمام.. لم يكن حرمان "النورسي" من أبسط وسائل النشر والتبليغ ليثبط عزيمته، أو ليثبّت في عضده، فقد كان محظوراً عليه اعتلاء المنابر، ومحروماً عليه أن ينشر كلمة، أو يطبع كتاباً، ولكنه رغم ذلك لم يكن ليجد في هذه الحالة المحزنة ما يبرّر انصرافه عن إنقاذ ما يمكن إنقاذه، واستخدام ما في حوزته من إمكانات متواضعة قد لا تلفت انتباه أحد، ومعالجة الأبواب الموصدة بمفاتيح ربما لا يلتفت إليها غيره، ولا يحسن استخدامها سواه، فهو إنسان عملي إلى أقصى الحدود وبإمكانه أن يفيد من إمكانات المحيط الذي يوجد فيه. ولم يكن "النورسي" مجرد مفكر يريد أن يزهو بفكره في الصالونات الأدبية، وعلى المقاعد الوثيرة الأنيقة في غرف الاستقبال الفخمة في مجامع الأدباء والمفكرين.. ولم تكن أفكاره ترفاً فكرياً لا يحسن تقديمه إلاّ على قراطيس ملساء في كتب رشيقة مذهبة.. ولم تكن عقيدته مجرد موقف نظري من الحياة يمكن الإستغناء عن الأفضاح عنه، أو تأجيل نشره إلى الوقت الذي يناسبه..

كلاً لم يكن "النورسي" مفكراً من هذا الطراز من المفكرين النظريين، ولا ينبغي له أن يكون، فالإيمان الذي يحمله "فكر عملي" يعيشه المفكر ويجيا به، ويتنفس في أجوائه ويعالج مفردات يومياته من خلاله وعلى ضوءه، وهو حيز كل يوم وكل ساعة لاغناء عنه لكل إنسان، فهو الأساس الذي ينهار الوجود من دونه، وتظلم الحياة في غيابه، ويمحل القلب الإنساني، وتجذب الروح، ويقفر الوجدان عندما يحال بين الإنسان وبينه. ومن هنا كان "النورسي" عميق الإدراك لبشاعة الجريمة التي يريد أعداء الله أن يرتكبوها في حق الإنسان والحياة والوجود، وشديد الإحساس بخطورة الظلم الفاحش الذي يريدون إنزاله بالحق والخير والجمال في هذا العالم.. وكان لا بد له أن يتحرك رافعاً راية الجهاد مهما يكن افتقاره إلى وسائل هذا الجهاد وإمكاناته.. فيبدأ من أية مرحلة.. ومن أية نقطة. ولو كانت هذه النقطة هي "الصفر" الذي لا يعني شيئاً...

وقد التفت هؤلاء الأعداء والخصوم أول ما التفتوا إلى المدارس والكتليات ومعاهد العلم فرفعوا منها "دروس الدين" وتوجهوا إلى الكتب المتداولة بين أيدي الطلبة يحذفون منها كل ما يشير إلى "الله سبحانه وتعالى" كخالق مبدع، ورب قدير، خلق الأكوان وأوجد العوالم، واستخلف الإنسان في أرضه، ونسبوا الخلق والإبداع والتكوين إلى نظريات وهمية ليس لها أي أساس علمي رصين وجعلوا من "الطبيعة والصدفة والنشوء والتطور" أرباباً من دون الله ينسبون إليها خلق السماوات والأرض والوجود والحياة والإنسان حتى غدا جحود الله وعدم الإيمان بالخالق ثوباً لا بد أن يرتديه - ولو مكرهاً - من يدعي العلم والثقافة والتحرر.. وأخذت نيران القلق الروحي، والتمزق

النفسي والتأزم الوجداني، بتحتاح شباب "تركيا" وتلتهم نفوسهم وتعمق عذاباتهم، وتحفر أحاديث مروعة، وتحدث شقوقاً مخيفة وشذوفاً دامية في مكونات النفس المفطورة على الإيمان، وفي موروثات القلب وأشواقه الدائمة إلى الله سبحانه وتعالى...

يقول السيد الأستاذ "عبدالله يكن" مصنف القاموس التركي الحديث في معرض سرده لأحداث تلك الفترة الحالكة من تاريخ تركيا:

كنت أنا وصديقي "رفعت" يومذاك طالبين في إحدى المدارس المتوسطة، وكنا نمر بتجربة روحية قاسية، حيث كانت نيران الشك والقلق والحيرة تأكل قلوبنا وعقولنا، وكنا نحسّ وكأننا نعوض يوماً بعد يوم في أعماق هاوية من التعاسة والشقاء لا قرار لها، ونتخبط في ليل دامس لا فجر له... وشاءت لنا العناية الإلهية أن نلتقي "النورسي" وأن تتكرر زيارتنا له، فكان لا ينفك يحدّثنا - في كل لقاء - عن معان إيمانية لم تكن لتخطر لنا على بال، ويدلل لنا بأسلوب غاية في الصدق والبساطة والوضوح على وجود الله ووحدانيته، حتى أراح من نفوسنا كل شك أو شبهة، فغمرتنا من جديد طمأنينة الإيمان، وسكينة اليقين، وطفحت نفوسنا بسعادة تجل عن الوصف، وأشرقت أرواحنا بشموس البشر والفرح، وكنا نحسّ في أعقاب كل زيارة للأستاذ "النورسي" وكأننا قد ولدنا من جديد، وإننا نتلقى حياتنا الجديدة البكر لأول مرة من يد الله نفسه....".

كيمياء الحياة

حيارى أرشدنا.. ضالون اهدنا.. شاكون بدد شكوكنا.. معذبون اغسلنا
بماء الرحمة.. مظلومون رُشنا بنور الإيمان.. محترقون أطفئء نيراننا ببرد اليقين..
أكبادنا حرى.. قلوبنا وهى.. أرواحنا ملتاعة.. نفوسنا ممزقة.. أشواقنا
مخنوقة.. أُناتنا تفرع سكينه الليل.. ضمائرنا تنزف وهي تتلوى بأصدق
الآلام البشرية كلما شهدت عمق الهوة التي نتردى فيها.. نلجأ إلى معلمينا
وأساتذتنا فيسكبون فوق نيراننا نيراناً.. ويصبون فوق آلامنا آلاماً.. تُهرع
إليهم فلا يزيدوننا إلا عنتاً.. وتمد إليهم أيدينا فلا يزيدوننا إلا غوصاً..
ونصرخ مستنجدين فلا نرى في ظلمة الأعماق حبل نجاة ولا يد إنقاذ..
جنناك - ياسيدي - فخذ بأيدينا إلى الله.. أرح بيننا وبين خالقنا
الحجب.. عرفنا به.. ضعنا على الطريق إليه صلنا به.. إملأ نفوسنا بمعرفته..
وكحل بصائرنا بسنا نوره.. ودع سفينة عذابنا ترسو على ضفاف رحمته..
وشواطئ عنايته..

وتتلقفهم يداك، ويحتضنهم قلبك، وتضمهم روحك وتمضي تحدثهم
حديث الأب الرحيم: يا أولادي! إنَّ الذي لا يعلمكم أول ما يعلمكم
التأمل العميق في الأشياء المحيطة بكم لا يعلمكم - في الحقيقة - شيئاً..
وإنَّ الذي لا يهديكم لتعمق الظواهر والأحداث التي تعاشكم وتعاشونها
في حياتكم اليومية يريد أن يضع بينكم وبين الحقيقة ألف حجاب

وحجاب.. الأصداف كثيرة وهي ملقاة على ضفاف الحياة ومن لم يرشدكم ويضع بين أيديكم مثاقب فكرية تستطيعون بها أن تتقبوا هذه الأصداف، وتزيجوا هذه القشور لتصلوا إلى الدرر والآليء واللباب فهو غشاش مخادع لا يؤمن على صياغة العقول وبناء الأفكار..

يا أولادي.. يا فلذات كبدي.. تعلموا كيف تتأملون وتغوصون بأفكاركم إلى الأعماق، اصغوا لما تقوله لكم هذه العلوم التي تتدارسونها.. فهي لو اصغيتم لحدثها كما ينبغي لحدثكم عن الله ولعرفتكم على خالقكم.. هل فيكم واحد لم ير القناني المرصوفة على الرفوف في أية صيدلية من الصيدليات.. أليس في كل قنينة دواء محضر ومهيأ بنسب معينة وبموازين دقيقة لشفاء مرض من الامراض.. هل يمكن لأحد أن تواتيه الجرأة فينكر أن وراء هذه القناني كيميائياً ماهراً وصيدلانياً حكيماً.. وأنا أسألكم:

ألا ترون معي أن كرتنا الأرضية هذه ما هي إلا صيدلية واسعة كبيرة تتراص مخلوقاتنا على رفوف هذا العالم وكل مخلوق هو قارورة كيميائية تجري فيها أدق التفاعلات الكيميائية وأصعب معادلاتها؟! وهل الحياة في كل كائن حي إلا كيمياء.. قطرة الماء كيمياء.. تنفس النبات كيمياء.. لبن البقرة وحليب الأم كيمياء.. عمليات الهضم في الإنسان والحيوان والنبات كيمياء.. الإحترق الذي يولد الطاقة والحرارة في الأجسام كيمياء.. والصحة نتاج تفاعل كيميائي موزون.. والمرض نتاج إختلاف طارئ في هذا الميزان.. فكيمياء الحياة تفوق بدقتها وموازينها أضعاف أضعاف دقة كيمياء الأدوية وتراكيبها في صيدليات الأرض كلها.

والآن قولوا لي: إذا كانت علومكم الطبية نفسها تقول: إن وراء كل تركيب دوائي كيميائياً وصيدلياً حادقاً.. أفلا تقول - نفس هذه العلوم - أن وراء كيمياء الحياة المبتوثة في كل مخلوق على هذه الأرض خالقاً حكيماً مدبراً - خلق كل شئ بميزان. وصاغ كل مخلوق ضمن معادلة كيميائية تكفل له الحياة وممارسة عمله ووظيفته في هذا العالم. ألا ترون معي أن الذي ينكر خالق كيمياء الحياة، جدير أن ينكر نفسه، وينكر رؤية الشمس في رابعة النهار..!؟

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أِنِّي لِلّٰهِ لَشَاكِرٌ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْاَرْضِ...﴾ (سورة إبراهيم؛ 10)

تأمل هذه الآية وما فيها من الإستفهام الإنكاري، إنها تدل على أن الحكم بوجود الله ووحدانيته، من أوضح البداهة لكل من أبصر بعينه مرة هذه السموات والأرض، غير انه بالرغم من ذلك، فإن فيما يلفظ به بعض المسلمين اليوم كلمات. أقل ما فيها أنها تومئ إلى الكفر بهذه الحقيقة الكبرى. وسأتناول منها بالبحث ثلاث كلمات لا يرددها في الغالب إلا أحمق ذاهل عن حقائق الأمور، وملحد جعل من بردعة المادة حُلَّةً يفاخر ويتباهى بها:

أحداها "أوجدته الأسباب".

والثانية "تشكل بنفسه".

والثالثة "اقتضته الطبيعة".

إن محالات كثيرة تتبع من الأخذ بمبدأ هذه الكلمات الثلاث القدرة، ولو ذهبت أعدها بتفصيل علمي موسع، لتجاوزت تسعين محالاً من

المحالات التي لا يشك فيها علم عالم ولا عقل عاقل، ولكني سأكتفي من بيان ذلك كله بالعشر فقط، أذكره في عبارات موجزة سريعة.

إن (المحال الأول): الناتج عن كلمة "أوجدته الأسباب" يظهر جلياً واضحاً في هذا المثال:

احتجنا إلى معجون مستحضر من بضعة عقاقير وحشائش مختلفة الأنواع والمقادير، وقام الصيدلي بتحضير هذا المعجون طبق موازين دقيقة ونسب مقرره بحيث لو أن بعض أجزاء العقار زاد على الحد المطلوب أو قلّ عنه، لأدى ذلك إلى عكس الفائدة المرجوة منه. فلو أن هزة قوية أطاحت بتلك القوارير من فوق رفوفها فتكسرت وسال ما فيها على الأرض، وجرى بعضه إلى بعض، فاختلطت الأجزاء المتنوعة، وتلاقت مع بعضها، فهل يمكن - عقلاً - أن يكون المحصول المركب من ذلك المزيج هو نفس ذلك العقار الذي استحضره الصيدلي بميزانه الدقيق وخبرته العلمية وحسابه المنظم؟ وهل يقبل مثل هذه الدعوى سوى من فاتته نعمة العقل السليم والتفكير المستقيم؟!.

إن كل ذي حياة على هذه الأرض ما هو إلا معجون رائع، ركب من ملايين الأجزاء العجيبة المختلفة أخذت بمقدار ووضعت إلى بعضها بحكمة ونظام..

ولا ريب أن إسناد وجود هذه المعاجين الحية في أحياء الأرض إلى الأسباب المادية الجامدة والعناصر الصامتة، هو أشنع وأقبح من إسناد وجود ذلك المعجون إلى إنكسار القوارير واندلاق ما فيها، واختلاط بعضه ببعض مشكلاً العقار المطلوب..

المحال الثاني: إن إسناد خلق الأشياء إلى الأسباب المادية، يستلزم -

منطقاً - أن يكون للكثير من العناصر والأسباب الدقيقة والمتناقضة في طبيعة وجودها وعملها، تأثير مباشر في وجود الأشياء، والحال أن تلاقي هذه الأسباب المختلفة والمتباينة على صعيد واحد، وتوقيت إجتماعها، واتفق كلمتها، وتقسيم العمل فيما بينها، وحساب ما ينبغي أن يعطيه كل عنصر، ويقوم به كل سبب، في عملية خلق بعوضة واحدة مثلاً، إن لم يكن هذا الامر من اجلى وأوضح المحالات فهو من أشد الممتنعات. لان جسم البعوضة على صغره ذو علاقة بأثر العناصر والأسباب المادية المبتوثة في الكون، بل إنه بحق خلاصة وزبدة لها. فلو سلمنا جدلاً بإسناد خلق هذا الموجود الصغير إلى تلك الأسباب، للزم أن تحتشد في ساعة الخلق جميع العناصر والأسباب كلها بالذات عند ايجاده، بل يجب تواجدها كلها كاملة في جسمه، بل في حجرة من حجيرات جسمه، لأن السبب المادي ينبغي أن يكون موجوداً مع المسبب داخلاً فيه، أي ينبغي أن تكون هذه العناصر المادية - رغم ما فيها من تناقض - مجتمعة كلها على الدوام تعمل عملها في كل حجيرات جسم البعوضة دون من يدفعها إلى هذا التلاقي والتفاعل. وهل هذا إلاّ وهم يستحي البلهاء أنفسهم من الهذيان به.

المحال الثالث: إن القاعدة البديهية تقول: "إنّ الواحد لا يصدر إلاّ

عن الواحد" أي ان كل ما يتصف بوحدة النظام والتنسيق والإنسجام في مظهره وشكله - فلا بد أن يكون المؤثر فيه واحداً. لان التأليف بين المتنافرات يجمع بين المختلفات في وحدة نوعية أو جنسية، لا يمكن أن يتم - بالضرورة - إذا ما اجتمعت عليه أكثر من إرادة ويد واحدة، ولا ريب

أن هذا العالم العظيم تجمعه كله وحدة الإنسجام والتنظيم، فإسناد وجوده بعد ذلك إلى مئات الألوف من الأسباب الجامدة المتناقضة التي لا شعور لها، ولا عقل، من أعظم الخرافات المضحكة. هذا بالإضافة إلى أن الأسباب المادية التي يُعزى إليها - باطلاً - الخلق والتكوين لا يمكنها أن تؤثر فيما يحيط بها من أشياء إلاّ بالتماس والمباشرة، والتماس والمباشرة يقتضيان تجانساً وتطابقاً بين الشيئين المتماسين في بعض خصائصهما على الأقل. وغير خاف أن ما يشاهد من تجانس فيما بين هذه الأسباب المادية هو تجانس ظاهري فقط في الأشكال والصور، أما بواطنها وما وراء المحسّ منها - أي في طبيعة ذراتها وجزئياتها التي تعطي للعناصر أشكالها وخصائصها فالأمر جدّ مختلف، فأين أسبابها المادية الموحدة لها؟ بل أين من يستطيع التفريق في أعماق تلك البواطن بين المؤثر والسبب المتأثر، أي بين الفاعل والمفعول، وكذلك أين هو الإنسان الذي يستطيع أن يفصل بينهما في الزمن والجوهر والحدود؟!.

أما الكلمة الثانية: "تشكل بنفسه" فهي أيضاً تنطوي على محالات لا تعمى عنها الأبصار.. إنك أيها الإنسان لست مادة بسيطة جامدة ملقاة على سطح هذا الوجود، إنما أنت جهاز معمل دقيق كبير بلغ في دقته غاية الروعة والإنسجام.. إن في جسمك ذرات عاملة ساعية على الدوام.. إنّ لجسمك تفاعلاً - في غاية الإنظام - مع سائر مظاهر الوجود من حولك، إنه أشبه ما يكون بتفاعل البيع والشراء والأخذ والعطاء.. من ملايين الذرات العاملة في جسديك تظل ساهرة على حفظ سير هذا التفاعل ودقة انتظامه، وهكذا تعلم أن الإنسجام ليس بين ذرات جسمك وحده، بل بين

مجموع هذه الذرات والوجود الخارجي من حوله. إن هذا يعني أن ثمة وحدة انتظام سارية باتم دقة بين وجودك العضوي ووجود سائر الكائنات من حولك!!..

فإذا رفضت أن توقن بأن الذرات الساعية في جسدك، إنما تتحرك فيه طبق قانون الخالق الأزلي العظيم لزمك أن تقول إنّ للذرات التي تتفاعل في حجرة واحدة من حجيرات عينك مثلاً عقلاً متفلسفاً هائلاً، وضع به قانون الإنسجام والتطابق بين كل ذرة من جسدك من جهة، وذرة من ذرات الوجود من حولك من جهة أخرى، سواء كان ذلك الوجود هواءً أو ضياءً أو طعاماً أو شرباً أو أي شئ آخر كما ينبغي أن يكون لكل ذرة من هذه الذرات فكر يدرك منابع دهرك، وعناصر آباتك وأجدادك يتصور ماضيك ومستقبلك.. ياخرافة العناد المتكبر!..

أما إذا كان جوابك عن عالم الذرة ونظامها نفس جوابك عن عالمك الحسّي هذا، أي أن له أيضاً أسبابه المادية وتفاعله الذاتي، فإن السؤال يلاحظك عن العالم الثالث الذي من ورائهما. والذي هو أدق من كليهما. وهكذا تتسلسل العوامل والأسباب إلى غير نهاية وتمتد إلى حيث يصل وراءها عناد المعاندين وجحود المنكرين.

الكلمة الثالثة: "إقتضته الطبيعة" ويتفرع عنها سلسلة من مظاهر

التهاوت المضحك، نجمل بعضها فيما يلي:

- إن صاحب هذا القول ملزم بالإعتقاد كل ذرة من ذرات الوجود تنطوي على مجموعة العوامل والمؤثرات التي أبدعت هذه المجموعة الكونية، وأنها تشتمل على القدرة والطاعة الكافية لإبداع عالم كامل كالذي نراه من

حولنا، وما على هذه القدرة إلا أن تنفذ وتعمل عملها في إبداعات أخرى متواصلة التكوين والحدوث..!

إذ مادام في كل ذرة من ذرات هذا الوجود طبيعتها الخلاقة، المدبرة الحكيمة، المنفصلة عن غيرها، وليست مرتبطة بقيادة عامة لها ولأمثالها. فلا مناص من التزام هذه النظرية الموهومة. تماماً كالذي يرى شعاع الشمس منعكساً على الأبصار من قطرات المياه، وقطع الزجاج، والأجسام الشفافة، فيتوهم أن في كل جسم من هذه الأجسام "طبيعته" الشعاعية المستقلة بذاتها، وأن هناك شمساً حقيقية ضمن كل جسم من هذه الأجسام المضئية على حدة.

ومن أراد أن يضحك من خرافة هذه النتيجة فليضحك قبل ذلك من خرافة المقدمة التي راح يزعمها ويتبناها..!

- وصاحب هذا القول ملزم أيضاً أن يعتقد بأن شبراً واحداً من أي أرض ينطوي على ما لا ينطوي عليه دول العالم كله من المصانع والمطابع والمواد الأولية المختلفة، وذلك أن قدحاً واحداً من التراب الذي لا تزيد مساحته على شبر يمكن أن تستنبت فيه معظم أنواع نباتات وأزهار العالم على سبيل التناوب.. فلو لم تكن قدرة الخالق العظيم هي التي تقذف في هذا الشبر من التراب قدرة التفاعل مع ما تستقبله من مختلف النباتات والبذور، ليعطي كلاً منها ذاته وشكله وخصائصه، إذاً لكان لا بد أن توجد في تلك التربة عناصر وقابليات متناقضة. علماً أن مواد النطف والبذور واحدة لا تختلف، وهي عبارة عن مزيج من: مولد الماء، ومولد الحموضة،

والكربون والآزوت، ومواد الماء، والهواء والحرارة والضياء وهي الأخرى بسيطة لا تختلف في تفاعلها من نبات لآخر.

ومع ذلك فإن هذه النباتات تنبثق من ذلك الشبر من الأرض، وكل نبات يحمل صفاته وخصائصه ولونه ورائحته، فلا بد أن يوجد في ذلك التراب شيء آخر إلى جانب المواد المعروفة للتراب من بذر وهواء وحرارة هو الذي يمدُّ هذه البذور بخصائص التشكل والتميز.

ومما تقدم يتبين أن الطبيعة صنعة لا صانع، نقش لا ناقش، حكم لا حاكم، شريعة لا شارع، مخلوق لا خالق، منفعل لا فاعل، مُصدَّر لا مُصدَّر.

المحاكمة

في نفس كل إنسان توقُّ فطري هاجع إلى الحق والعدل والمساواة وفيه حنين نزاع إلى الخير والجمال والفضيلة وكره طبعي شديد للباطل والظلم والشر والقبح والرذيلة..

فقد يتحمل الإنسان من الدولة التي يعيش في كنفها ويستظل بظلالها أن تشبعه يوماً وتجيعه يوماً آخر، وتمنحه مرةً وتمنعه أخرى. ولكنه لا يقبل منها - إلاً على مفضيٍ - أن تفرق بينه وبين زيديٍّ من الناس، فتعطي زيدياً ما لا تعطيه له وتسمح لزيديٍّ ما لا تسمح به له.

تلك هي الفطرة التي فُطر عليها الناس، وتلك هي المبادئ التي ولدت معهم يوم ولدوا، وجاءت معهم يوم جاءوا إلى هذه الدنيا. لذا فقد بات من أعظم ما يطمح إليه الإنسان، ويحلم به، ويلحّ عليه، ويتوجّه إليه، أن يرى الدولة التي هو جزء منها وهي محكمة بمبادئ العدل والحق والخير والجمال.. ففي أجواء الحق والعدل والخير والجمال، ينمو الإنسان ويكبر. وتختصر شجرة حياته وتورق، وتنتفح أزاهير فكره وتعقب وتزدهر نفسه وتخصب روحه وتتاح له الفرصة كي يحيا أفكاره ويعايشها. ويعبر عنها ويبشر بها دون خوف أو وجل، ويصبح في امكانه أن يفصح عن عواطفه، ويوح بمكونات سرّه، دون خشيته من الوقوع تحت طائلة الحساب والعقاب، وبذلك يمضي في حياته وهو يستمتع بصحة نفسية سليمة وعافية فكرية خالية من أمراض الكبت والضغط التي تضطره في خاتمة المطاف إلى مرض "أزدواج

الشخصية" العضال، وإلى داء النفاق الاجتماعي الذي يفسد علاقته بالأفراد والمجتمع والدولة، ويقطع ما بينه وبينها من حبال الصدق والإخلاص والمودة.

والدولة - بعد هذا وذاك- هي شخصية الأمة المعنوية التي يتمثل فيها - بل ينبغي أن يتمثل فيها- روح الأمة وعقلها وقلبها وأشواقها وآمالها وتوقها العظيم لمبادئ العدل والحق..

أما إذا داءت نفس الدولة بفكرة الهوى. ومرض عقلها بوباء الإنحياز والمحاباة بين رعاياها، وشاءت أن تضع سلطانها في خدمة فئة من أبنائها، وإرهاب فئة أخرى والتسلط عليها، متنكرة لقيم الحق والعدل والمساواة، ومتجاهلة كونها أمماً للجميع، وموئلاً لكل. حين يحصل هذا، فإن احساساً مؤلماً بالظلم وشعوراً حزيناً بالإضطهاد يبدأ بالتسرب إلى نفوس الناس، ويملؤها بالمرارة والأسى وخيبة الأمل، وعندئذ تفقد الدولة هويتها وتحسر احترامها، وينفرط عقد أعرانها وأصدقائها..

والمؤمن إنسان تحكمه المبادئ، وهو يريد أن يتحاكم إليها أيضاً ولا يخشى حكمها، أو يهاب قضاءها، ولكن غالباً ما تتم محاكمة أصحاب الإيمان ورجال القرآن في غياب المبادئ الأخلاقية والفضائل الإنسانية.. إن الغرور والشهوة والهوى حين تدق بأقدامها وجه العدل والحق، وتدوس على حقوق الإنسان وحرياته الأساسية - في أي مكان من الأرض - فقد يعني هذا انهياراً مرعباً في الأسس الأخلاقية التي تقوم عليها الدول، وهبوطاً سريعاً نحو معاداة الإنسان ووضعه موضع الإتهام والريبة فيما يصدر عنه من نشاط فكري.. وإلا فكيف يمكن أن تفسر "مئات المحاكمات" التي تعقد لرجل كل

همّ معالجة القضايا الإيمانية، ومدارسة العلوم القرآنية، وما هو التبرير الذي تقدمه دولة ما حين تقدم على زج إنسان في زناناتها وسجونها الشهور والأعوام - لا لشيء إلا لأنه يمدّ الناس بالأفكار التي تزيد من إيمانهم، وتعمق عقيدتهم - ويضع بين أيديهم السلاح الفكري الذي يستطيعون به تنفيذ ما يبثه المارقون والجاحدون من سحب التشكيك في إيمانهم وعقيدتهم..؟! تلك إذن هي جريمتك - يا معلم الإيمان -.. أنت تعلم "الحقيقة" العظمى التي هي منبع كل حقيقة في هذا العالم.. وهم يريدون أن يطمسوا عليها بألف حجاب وحجاب.. أنت تهدي إلى الحق وهم يخافونه ويخشون نوره، لأنهم بالباطل يعيشون وبه وعليه تقوم عروشهم وترتفع أمجادهم.. هم يخافونك لأنهم ضعفاء رغم ما يملكون من مال وسلاح وسلطان، وأنت بانتسابك للإيمان قويّ بقوة الإيمان وعظمة القرآن، فكيف لا يخشاك الأقرام، وإن تطاولوا.. وكيف لا يخافك الصغار وإن تكابروا..

وفي قفص الإتهام - وهل حياتك إلا قفص اتهام دائم - تُلقني دفاعك: أجل - أيها السادة - لا سبيل للإنكار باننا أعضاء عاملون في جمعية الإسلام الكبرى التي تضمّ إلى صفوفها مئات الملايين من المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وهم في معسكر. "الإيمان" هذا يقومون في صفوف متراصّة بعرضٍ إيماني رائع خمس مراتٍ في اليوم واللييلة ويعطون العهود والمواثيق لله مولاهم على البقاء متعلقين بنظام هذا المعسكر وبدستوره العظيم حتى آخر حقه من خفقات قلوبهم.. وهم يرفعون فيما بينهم شعار. "إنما المؤمنون إخوة" ويتسابقون في حرص عظيم على وضعه موضع التنفيذ والتطبيق في علاقاتهم، بعضهم مع البعض الآخر فيما يضطربون فيه

من شؤون حياتهم.. وتتساءلون: ما هو عملكم؟ وإلى ماذا تسعون؟!.. وأنا أقول لكم بكل صراحة:

إن عملنا وواجبنا هو تعريف إخواننا المؤمنين بحقائق القرآن. ومنابع الإيمان، تعريفاً علمياً راسخاً. وذلك تعاوناً متاً جميعاً على إعتاق رقابنا. وإطلاق نفوسنا من سجن الأبدية الرهيب الذي يتهددنا جميعاً، والذي ليس بيننا وبينه إلا أن ينقلنا إليه الموتُ في طرفة عين..

تفكرون وتعملون أفكاركم، وتتساءلون فيما بينكم: كيف السبيل إلى إيقاف هذا السيل النوراني العظيم المتمثل في "رسائل النور"؟ وأنا أقول لكم:

لا جدوى من كل ما تتخذون من وسائل، ولا طائل من وراء ما تضعون من سدود وعوائق.. إنَّ "رسائل النور" قد وُضعتْ في خدمة حقائق القرآن. والقرآن حقيقة مرتبطة بعرش الله العظيم.. ومن ذا الذي يتجرأ على الوقوف في وجه حقيقة ترتبط بعرش الله تعالى؟.. إنَّ من يريد الإنتحار. ويطلب الخزي الأبدي فليجرب قرنيه في جبل هذه الحقيقة التي يزيدها المدُّ الزماني قوةً على قوتها وضموداً على صمودها..

إنني لا أتوجه في بياني هذا إلى أعضاء هذه المحكمة فقط، بل وإلى تلك الزمرة المتآمرة في ولاية "اسبارطة" ضدنا.. إنني لأعجب كيف يُتهم أناسٌ بتهديد الأمن والسلام وهم يتبادلون فيما بينهم "تحية القرآن" وهي "السلام" ويتدارسون فيما بينهم بيانه وحقائقه ومعجزاته، ويقفون عند أوامره ونواهيته.. كيف يريدون لهؤلاء الناس المهبوط من هذه الآفاق النورانية العالية والقيم الفكرية الرفيعة، إلى مستنقع السياسة الرخيصة ويتهموهم بأنهم سياسيون يعملون في أجوائها الموبوءة، ودهاليزها المظلمة.. نحن لا نعرف الظلام منذ

عرفنا نور القرآن. ولا نعرف في ديننا شيئاً نخفيه حتى نعمل في الخفاء. في حين يحق لمارق مثل الدكتور "دوزي" أن يفتري على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار. في حماية الحكومة وتحت سمعها وبصرها مستتراً بحرية الرأي والفكر.. أما نحن -خدام القرآن - الذي يشعّ نوره في أفئدتنا وفي أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين به إرتباطاً مصيرياً. والذي نعتقد أنه سفينة نجاةنا في الدنيا وفي الآخرة، فإذا ما كشفنا عن إيماننا به، وتحدثنا عن تمسكنا بتعاليمه، ودعونا الناس إليه.. فذلك هو الخطر ما بعده خطر. والجريمة التي ما بعدها جريمة، فتنهال علينا التهم، وتلتصق بنا شتى أنواع الإفتراءات والأكاذيب، ونوضع موضع السياسيين المتآمرين على الحكم والجمهورية. إنكم تتهمونني بمعادة الجمهورية.. وكيف أعادي ما أحبه وأقدره وأحترمه.. إنني أكنّ شعور الإعجاب بالحياة الاجتماعية المنظمة التي يسعى الجميع فيها إلى الإرتقاء بشؤون جماعتهم... كلٌّ من موقعه ومن خلال وظيفته.. حتى أنني أحببت الحياة الجماعية المنظمة للنحل وللنمل. ومذ كنتُ طالب علمٍ يؤتى لي بطعامي من الخبز والحساء، كنتُ أكل نصيبي منه ثم أنثر ما يتبقى منه بين جماعات من النمل كانت تقيم بالقرب من مجلسي تقديراً وإعجاباً بطراز عيشها الجماعي المنظم الجميل. إنَّ شخصاً يتأمل الساعات الطوال مجتمعات النمل، ويراقب سلوك جماعاتها العاملة، ويحبها ويعجب بها، لا يمكن أن يعادي جمهوراً بشرياً عاملاً في ظل جمهورية صالحة تعرف واجبات كل فرد من أفرادها وتحترم حقوقه. وأكبر دليل على تقديري العظيم للجمهورية هو احترامي الكبير لخلفاء الإسلام. فقد كانوا إلى جانب كونهم "خلفاء" رؤساء جمهورية أيضاً، ولقد كانت حياتهم حياة

جمهورية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بجمهور رعييتهم، يشاركونهم في السراء والضراء.
لا في الادعاء اللفظي فقط بل في الحقيقة والواقع. تفخرون بكونكم
علمانيين، وبأنّ جمهوريتكم علمانية.. ونحن نتمنى أن تكونوا "علميين"
صدقاً، تتناولون قضايا الدين والإيمان بمنطق العلم وأسلوبه الهادئ الرصين
في البحث والاستقصاء.

فالعلم نفسه لا ينفى ولا يثبت عندما تستعصي على منطقه ووسائله أية
قضية من القضايا التي يتناولها بالبحث بل يقف منها موقفاً محايداً في انتظار
ما يمكن أن تأتي به الأيام من حقائق سلباً أو إيجاباً.. وليت جمهوريتكم
تقف من "الدين" هذا الموقف المحايد فلا تتعرض له بخير أو بشر.. ولكن
ها أنتم أولاء تفسحون الطريق أمام حفنة من "أنصاف المثقفين" وأدعياء
العلم لكي يرتكبوا كل جريمة وفاحشة، ويجتروا الأكاذيب على الله، ويفتروا
على الكون والوجود باسم الحرية الوجدانية والفكرية.. حتى إذا تصدينا لهم
بالردّ، وسلطنا الأضواء على أكاذيبهم وافتراءاتهم، وجئناهم بآيات من
"القرآن الكريم" نجلوها، ونكشف عما فيها من أسرار وعلوم وحقائق في
الحياة والكون والوجود، تضايقتم من ذلك ورفعتم أصواتكم بالنكير وقلتم:
هاهنا جمعية سرية رهيبة تعمل ضدنا.. وتأمّر علينا.. أوقفوا هؤلاء
السياسيين عند حدهم.. انفوهم شردوهم.. اسجنوهم..

لقد توضحت الأمور وانكشف ما كان مستوراً.. إنكم لا تتعاملون مع
الدين بالعلم الذي تدعونه.. ولا بالعقل الذي تتظاهرون بإحترامه.. ولكن
بالكره والحقد والضغينة.. إنّ المسألة إذن من الخطورة والإجرام، بحيث أنكم
تحاولون سترها برداء العلمانية التي نعتبرها غايةً في العدل بالنسبة الى ما

تخفية تحتها من أبشع المظالم.. فإن كان الأمر كذلك -وهناك ألف دليل ودليل على نياتكم الشريرة تجاه الدين- فاعلموا أنه لو كانت لي ألف روح فأنا على استعداد أن أضعها جميعاً الواحدة بعد الأخرى فداءً في سبيل أهم حقائق الكون: ألا وهو دين الله تعالى.. ولن أحتمي منكم بغير حصن واحد فقط هو "حسبنا الله ونعم الوكيل".

أيها السادة أعضاء المحكمة: إذا جاز في حكم العقل أن نور الشمس يمكن أن يخفي ما يقع عليه من شيء وأن أشعتها يمكن أن تصير ظلمة يستتر وراءها الإنسان في رابعة النهار، وأن وهج ضوئها يمكن أن يتحول الى ستائر سوداء مسدلة تحتجب خلفها الأشياء.. أقول: إذا جاز هذا في حكم العقل جاز أيضاً أن يتستر بالدين، ويحتجب به من يريد من ذوي الأغراض الدنيوية وأصحاب المصالح السياسية الضيقة المحدودة.. لأن الدين الحق، والإيمان النقي الخالص، هو نور مشع لا يقبل ظلاماً، وضياء ساطع يرفض أن يخفي وراءه عملاً من أعمال الدنيا، أو يتستر على غرض من أغراضها التافهة الرخيصة.. فكل عمل لا يبتغي به صاحبه مرضاة الله سبحانه وتعالى - سرعان ما يكشفه نور الإيمان، ويقذف به خارج معسكره.. فكيف جاز لكم أن تتهموني بأني أتستر وراء أعمالي الدينية الصرفة للإحلال بالأمن، وتعكير صفو السلام؟.. وأنا منذ ربع قرن أمسك بيدي هاتين مصباحاً وأحوس به خلال الظلام لأدلل الناس على الطريق الى الله، وأساعدهم لإنقاذ أنفسهم من بين براثن الدنيا وقيودها وأغلالها الى نور الدين ورحابة اليقين.

إن الذي يقف عاري النفس والقلب والضمير أمام خالقه خمس مرات في اليوم والليلة، ليس من طبعه أن يخفي على الناس ما لا يقوى على إخفائه عن الله، وقد آن الأوان لكي أقول لكم:

إنّ اتهامكم هذا الذي تشهرونه في وجوهنا كلّ مرة ما هو إلاّ غطاء تغطون به ما تدبرونه من شرّ للدين، وما تضمرونه من حقدٍ عليه، ولو كنتم صادقين مع أنفسكم لقلتم: نحن نريد خنق الدين والقضاء عليه في هذه البلاد. ومنع أي صوت يمكن أن يتحدث باسمه، لذلك جئنا بكم الى هنا.. وإلاّ فأنتم تعلمون أنّ "رسائل النور" التي تضىء في قلوب الألوّف من المؤمنين منذ عشرين سنة، فهل سجّلت شرطتكم وأجهزة أمنكم حادثةً واحدة، ارتكبتها طالب من طلاب النور للإخلال بالأمن؟.

ان المادة 163 من قانونكم التي تريدون محاكمتنا بموجبها لا يمكنكم تجريمنا بمقتضاها أو تطبيق منطوقها علينا.. أنتم تعلمون هذا جيداً.. لكن هي سيفكم الذي تشهرونه في وجوهنا بالباطل كلما أعوزتكم الحيلة.. وضاقت بكم السبل.. إذن فاسمعوا - يا مَرِنُ بعتم دينكم بدنياكم - وانتكسبْتُ أرواحكم الى مهاوي الكفر المطلق... إني أقول لكم بمنتهى ما أعطاني الله من قوة:

افعلوا كل ما يمكنكم فعله، فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام، نحن في كل وقت ننتظر أحكام إعدامكم.. أتظنون أننا نخاف الموت وهو سيبلنا الى لقاء الله.. أم تحسبون أننا نهرب سجونكم ونحن قلّما نغادرها حتى نعود إليها.. وحتى لو فكّتم قيودنا

وأطلقتكم سراحنا فإنّ سجننا أكبر وأشدّ عذاباً لنفوسنا وأعظم إيلاًماً لأرواحنا، سيحتويها ويطبق بثقله على خناق أفكارنا ومعتقداتنا حين لا يُسمح للإيمان أن يقوم بوظيفته ويؤدي رسالته، فنحن إذن في سجن دائم وحبس مقيم، سواءً وضعتمونا في غياهب سجونكم أو تركتمونا مطلقي السراح ولكننا مقيّدو الفكر والروح.. وأنا أقول لكم: ضعونا في سجونكم إن شئتم... ولكن كل ما نطلبه هو أن تخلوا السبيل أمام "رسائل النور" لتأخذ طريقها الى الناس، فهي قوت قلوبهم وزاد أرواحهم.. أما إذا أصررت على الحيلولة بين هذه الرسائل وبين الناس فإنكم بذلك ترتكبون جريمة كبرى كبرى الكون بحق البشرية المعذبة التي تبحث عن الخلاص من عذاباتها... ولا خلاص لها إلاّ بالدين والإيمان..

ويلهب دفاعك المحكم الرائع حماس الملايين المسلمة من شعب "تركيا" ويثير مدّاً هائلاً من المشاعر والعواطف والإهتمام المتزايد، وبنبه الغافلين الى تلك المظالم الوحشية التي تتعرض لها أنت وتلامذتك من لدن السلطة في كل مرة، ممّا يضطر المحكمة أمام هذا الفوران الشعبي الهائج أن تصدر حكماً ببراءتك من التهم المسندة إليك..

ورغم هذه البراءة تظلّ موقوفاً في سجنك، وبعد زمن قصير تصدر الأوامر بنفيك هذه المرة الى ولاية "أفيون" في "قضاء أميرداغ" حيث توضع هناك تحت رقابة حكومية مشدّدة تمنعك من الإتصال بأي مخلوق، أو كتابة أية كلمة حتى سنة 1947..

ومن منفاك القصبي تُوجّه إلى "أنقرة" رسالة مشحونة بالمرارة والألم.
ينقلها أحد تلامذتك وينشرها بين الناس ليتعرفوا عن كتب علي إحدى
المآسي الإنسانية التي تعانيتها وتعايشها في منفاك ذاك:

أين أستطيع أن أتلمس هذا العدل الذي لا أبغي سواه.. أبحث عنه في
ظلمة الضمائر.. أم أجدّه في مقابر النفوس الخرية.. أو أقع عليه في جوهر
الإنسان المهيب وقد غارَ في أعماق الظلم والظلمات.. إذا كان خصومي
وقد طووا نفوسهم على أحقاد خارقة تجاهي هم أنفسهم قضائي وحكامي،
فأين أحد مَرِنٌ ينصفني.. وكيف أشكو.. ولمن أشكو.. ليتكم لم تطلقوا
سراحي.. ولم تمنحوني حريةً هي أشدّ عليّ ألف مرة من حياة السجون
والمعتقلات.. وأية حرية هذه التي أستمتع بها وأنا أعاني من وطأة حراسة
شديدة ظالمة، ورقابة خانقة تكاد تحصي عليّ أنفاسي ونبضات قلبي.. إن
يوماً واحداً من هذه الحياة الخائفة البائسة يضايقني ويقض مضجعي أكثر
بكثير مما كان يضايقني شهر كامل في سجن المنفرد ذاك..

تزعمون أنني أمارس حرّيتي ومع ذلك -ورغم ضعفي ومرضي
وشيخوختي وهذا الشتاء القارس- تمنعوني من كل شيء يمكن ان يخفف
آلامي ويمنحني شيئاً من العزاء.. وتحولون بيني وبين أي إنسان يريد أن يقف
الى جانبي ويعينني على قضاء حوائجي.. منذ عشرين سنة وحتى هذا اليوم
وأنا أعاني مأساة حبس منفرد.. ألا يكفيكم هذا العذاب الذي تصبّونه
عليّ صبّاً.. وتغمروني به من كل جانب غمراً..

إنني أشفق عليكم وأنا لم لحالكم قبل حالي.. إنّ عذاباً إلهياً يوشك أن
يعمكم مالم توقفوا صبّ عذابكم عليّ.. وكفّ مظالمكم - يمهّل ولا

يهمل.. لأن الله تعالى لا يقبل الظلم لعباده.. وهو - جلّ شأنه - يمهّل ولا يهمل.. إذا كانت محاكمكم قد أصدرت أحكامها ببراءتي من التهم المسندة إليّ.. وإذا كنتم قد اقتنعتم - بعد دراسة مكثفة استغرقت تسعة أشهر لما كتبته خلال عشرين سنة - بأن هذا الذي كتبته لا يهدد أمن الدولة، ولا يتعرض لرجالها بسوء، فلماذا إذن تحرموني من أبسط حقوقي الإنسانية التي يتمتع بها سواي من الناس.

ألا يعني هذا أن هناك يداً خفية مسخرة لخدمة السياسات الإستعمارية -والتي لا يروقها رقيّ هذه الأمة ولا رقي دينها وعقيدتها- هي التي تغريكم بي، وتحرضكم ضدي، وكل غرضها أن تستنفد صبري، وتمتص تحملي وتوهن قواي، فأقول: حسبي هذا القدر من الجهاد، ثم أكسر قلمي، وأعقد لساني، وبذلك تنهياً للأعداء داخل البلاد وخارجها فرصة الإنفضاض على الدين وإعمال معاولهم في إيمان الأمة وعقيدتها..؟ إنني أتقدم بجزيل شكري الى السادة المسؤولين في "أنقرة" على اهتمامهم بمعيشتي، والإيعاز لرجالهم في هذه المنطقة أن يقدموا لي وجبات طعام يومية على حساب الدولة..

ولكننا - أيها السادة - لا نحيا بالخبز وحده.. لا أريد خبزكم، إذا كان الثمن الذي تريدونه هو حرية فكري وروحي ووجداني.. إنّ الحرية هي قوام كل مخلوق على هذه الأرض.

عندما تحجرون على حريتي وتمنعوني من أداء واجبي الديني فإنكم تقتلونني وتقتضون على حياتي. لم أكل الخبز الذي تقدمونه لي.. إن إقصائي عن حريتي وإبعادي عن مجال عملي الفكري تجعلني أميلُ حياتي ملاماً شديداً ولو اكتفتها أعظم مغريات العيش.. ولا أقول: إنني أفضل عليها الحبس

والسجن.. بل أفضل عليها القبر الموحش نفسه. على هؤلاء السادة الذين أصدروا أحكامهم ببراءتي أن يردّوا عليّ قبل كل شئٍ حرّيتي، ألاّ يمسّيوها بسوء.. إنني يمكن أن أعيش بدون طعام ولكن لا أعيش بدون حرية.

نعم.. إنّ إنساناً عاش طوال تسع سنوات على مبلغ لم يزد على 200 ليرة تركية، دون أن يعرض نفسه معها الى ذلّ الصدقة والمسألة. وقبول الزكوات والهدايا، لا ريب أنه اليوم أعظم احتياجاً الى خبز الروح من خبز الجسد..

إنكم تمنعوني -وأنا في معتزلي هذا- أن ألتقي ولو بعشرة فقط من خلّص تلامذتي وإخوتي.. ولكن عزائي أن مليوناً من المسلمين يعكفون اليوم على دراسة "رسائل النور" فيما بينهم.. إذا كنتم قد استطعتم إسكاتي ومنعي من الكلام والتحدث الى الناس.. فإنكم لن تستطيعوا إسكات رسائل النور التي تتوغل عميقاً الى شغاف القلوب.. إن كل نسخة منها تقوم مقامي في الكلام والبيان، ولن تسكتها أي قوة على الأرض...

الفصل الثالث

المعنى والمغزى

في مسار التاريخ الإنساني، وفي تحولاته الكبرى، يلعب "الشر" في ميادين الصراعات البشرية دوراً تحريكياً حافزاً لقوى "الخير" وطاقاته الكامنة في النفس الإنسانية وفي العالم..

فعندما يتفاقم الشر ويتعاضم أمره وتهدب رياحُه فإن الخير - من موقعه السكوني - يتحرك بالمقابل أيضاً ليدخل - ضمن المسار التاريخي - في حلبة الصراع مع "مقولات" "الشر" وأفكاره.. فأحساس "الخير" بالخطر وشعوره باقتراب لحظات - ما قبل الإنهيار - يحفز قواه، ويطلق طاقاته، ويبقيه في صحوه دائمة، تمنحه القدرة على قبول التحدي، ومنازلة القوى الشريرة التي تريد استئصاله من الأرض.

فالشر - بهذا الاعتبار - هو الوجه الثاني "للخير" وان كان الوجه القبيح والمقيت، ولعلّ دوره في استنهاض الخير، واستفزاز قواه، وتفجير طاقاته - كلما أصابه الخمول واعتوره الفتور - هو حكمة وجوده في هذا العالم.. فالصراع البشري - عبر التاريخ - ليس - في الحقيقة - صراع طبقات متناقضة المصالح، بقدر ما هو صراع بين شرور هذه الطبقات

وفضائلها، وبين سمّو الإنسان وهبوطه وبين صراخ الأرض في طينته وهتاف السماء في قلبه وروحه.. فاحتدام الصراع بين "الرذيلة والفضيلة" يشكل وجه التاريخ الأساس ويرسم معالم طريقه نحو الأعظم والأجمل والأفضل.. لذا فإننا نلمس "روح الدين" وراء كل الحضارات الكبرى التي شيدها الإنسان على هذه الأرض، والغالبية العظمى من فلاسفة التاريخ يشيرون الى أن "الروح الديني" هو الفاعل الأساس في محركات التاريخ، وأنه أعظم أوجه التاريخ أهمية وأجدرها بالملاحظة والدرس.. وهم يتساءلون.

ترى ماذا يبقى للأفراد والشعوب والأمم من تاريخها على هذه الأرض، إذا نحن انتزعنا من سجلها التاريخي صفحات الوحي الإلهي التي تحتويها الأديان؟ وفي اي مكان - سواها يستطيع الانسان أن يكتشف معنىً لحياته، أو مغزىً لوجوده؟.. واكتشاف "المعنى" والعثور على "المغزى" هو الذي يعطي الإنسان الأمل، ويمنحه اللذة والنشوة وهو في غمرة كفاحه الدؤوب من أجل "إنسان" أفضل" و "إنسانية" أكثر نقاءً وطهارةً..

و"النورسي" وجد المعنى واكتشف "المغزى" وأدرك أنه وُهَبَ أنفاس الحياة، ومُتَمِّح مكاناً في هذا العالم لكي تتحرك من خلاله قوى الإيمان والديانات.. وإن كان هذا "المعنى" وهذا "المغزى" لا يأخذان تمام مداهما، ولا يستوفيان أقصى تحققهما إلا في حياة أخرى يستأنفها في عالم آخر وراء هذه الحياة الدنيوية القصيرة الأجل.

وهذا الكشف أورث "النورسي" إطمئناناً نفسياً عجيباً، جعله يستعذب العذاب نفسه، ويستحلي المرارة ذاتها، ويجد لذته في قمة المعاناة والألم، فلم يتوقف - لحظة واحدة - عن بذل أقصى جهده للتبشير بهذا "المعنى"

وتسليط الأضواء على "المغزى" التاريخي للوجود عامة، ولوجود الإنسان وحياته في هذا العالم بشكل أخص.

وكان "الموت" وهو صند "الحياة" ورفيقها في هذا الوجود مشار تفكيره بادئ ذي بدء في البحث عن "معنى" للحياة و"مغزى" لخلق الإنسان.

وكان "الموت" وهو يلف كل شئ ويطوي الإنسان والحيوان والنبات والجماد..

في كل لحظة من لحظات الزمن تموت عوالم، وتولد عوالم، يأتي الى الأرض - هذا الفندق الكبير - أقوام، ويغادرها أقوام من شتى صنوف الخلق، انساناً وحيواناً ونباتاً، وحتى الأزمنة والأمكنة تولد وتموت معاً، ولا تند - عن هذا الناموس المهيمن الشامل - أية ذرة من ذرات العالم..

لقد احب أماكن كثيرة، وارتبط بها بأجمل العواطف والذكريات، وعندما ذهب يزورها بعد بضع عقود من السنين، وجد أنها قد جالَّت وماتت ولم تعد كما كانت يوم أحبها وتعلق بها أول مرة..

توفي الكثيرون ممن كان يحبهم، أقارب وأصدقاء ومعارف، فبكاؤهم مُرّ البكاء، وحزن عليهم أعظم الحزن.. ولكنه أخيراً وجد عزاءه بالإيمان، وتيقن من خلال - معاناته الروحية - أن الذين يفارقوننا، ويذهبون عنا ليس بيننا وبين أن نلقاهم سوى هذا الخيط الرفيع الذي يشدنا الى الدنيا، وهو سينقطع يوماً ما - كما انقطع بمن سبقونا - ويتركنا ننطلق الى حيث الأحبة الذين عبروا الى منازل الآخرة..

والآخرة واحدة من حتميات هذا الناموس الأكبر الذي تفضي كل مقدماته المحسوسة والمشهوددة الى هذه النتيجة المحتومة.. و"الإيمان" لا يمكنه أن يبلغ تمامه، ويستوفي أقصى غاياته ومعانيه في مدة حياة واحدة على هذه الأرض مهما طالت هذه الحياة - بل لا بد له حتى يأخذ مداه الأوسع والأعمق والأعظم من حياة أخرى أبدية غير زمانية، ترتفع فيها الحجب وتنزح الستر، وتصير الغيوب شواهد قائمة وحقائق منتصبة يراها المؤمن رأي العين ويلمسها لمس اليد..

أعمارنا إذن هي هذه الأنفاس التي تعلقو وتهبط في صدورنا، وهي أنفاس معدودة ومحسوبة ومقدرة سلفاً، وكل نَفَسٍ هو جزء من عمرنا يغادرنا شاهداً علينا أو شاهداً لنا..

من هنا جاء إحساس "النورسي" بالزمن وشعوره الحاد بخطورة كل لحظة من لحاته أو لحظة من لحظاته، لأن جزءاً عزيزاً من كيانه ينسلخ مغادراً وجودنا مع هذه اللمحة أو اللحظة..

وللزمن - بعد ذلك - طرائقه الخاصة التي يُنبئ بها الناس إلى مروره سراعاً، وأسلوبه الفريد في لفت أنظارهم الى اقتراهم من ساعة المغيب، ليأخذوا حذرهم ويتزودوا لرحليهم.. وفي لحظة حاسمة من تليخ "النورسي" يبصر في المرأة شعرات بيضاء تغزو فوديه على حين غفلة قصيرة... فينتفض هلعاً ويحس وكأن الشعرة من هذه الشعرات إبرة مدببة توخر روحه وكيانه وتستحثه للمزيد من العمل في خدمة "الإيمان" قبل فوات الأوان..

فالزمن نفسه، أسحاره وأصباحه، وضحاؤه وظهيرة، وأصائله وأماسيه، عشائه وليله، هذه الأوقات رموز ومعانٍ لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان منذ أن تدب الحياة فيه وهو في رحم الأم وحتى يعود في خاتمة المطاف الى رحم الأرض أمة الثانية الأخرى.. فهذه الأوقات هي إصداء الزمن الذي يصرخ بالإنسان منبهاً وموقظاً، وهي همساته في أذن الروح كلما انتابها كسل أو فتور، ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى الصلوات - التي تمثل قمة الصحو واليقظة - في هذه الأوقات **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ** (سورة الروم؛ 17-18)

فعلما في إطار الأوقات ساعة إلهية كبرى، عقرب ثوانيتها الليل وضابط دقائقها السنون والأعوام وحاسب ساعاتها القرون والأزمان، وكل ميل أو عقرب فيها - كساعة الإنسان - يناظر الآخر - ويرتبط به، ويتحرك بحركته، ويأخذ حكمه.

والدين لكي يربطنا الى هذه الساعة الكبرى، ويلفت إنتباهنا إليها، ويجعلنا متيقظين لحركتها لا نغفل ولا نسهو، فرض لنا ضمن كل وقت من أوقاتها، وموسم من مواسمها نوعاً من أنواع العبادات، وشكلاً من أشكال التقرب الى الله، فالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها الكثير من فروض الطاعات ومندوبات الأعمال لها - ضمن هذه الساعة الكبرى - وقتها المعلوم وزمنها المخصوص.

يقول "النورسي" في حكمة الصلاة في أوقاتها المعلوم: تسألني - أيها الأخ - عن حكمة تخصيص هذه الأوقات الخمسة المعينة بالصلاة،

وسأشير الى حكمة واحدة فقط من بين حكمها الكثيرة:

1. وقت الفجر الى طلوع الشمس

يشبه هذا الوقت في نداوته، ورقة أنسامه، وعطر أنفاسه، باكورة الربيع وخضرة أيامه، وتفتح أزاهيره وأوراده، كما إن هطول نور الفجر الهادئ الأنوس على الأرض يشير الى أول نزول الروح الإنساني في رحم الأم، بداية خلقه، ولأنه الخيط الأول من نمار جديد فهو يثير في النفس معنى اللحظات الأولى من اليوم الأول من الأيام الستة في خلق السموات والأرض.

كل هذه الخواطر والأفكار تنبعث في نفس المؤمن مرة واحدة وهو يستقبل فجر يوم جديد، وفيقوم الى الصلاة داعياً متضرعاً طارقاً باستحياء باب رحمة القدير ذي الجلال، ومتمرعاً على أعتاب الرحيم ذي الجمال، عارضاً افتقاره عليه، طالباً التوفيق والعون منه سبحانه، فهذه الصلاة في باكورة يوم المؤمن الجديد هي ركيزة ثابتة يرتكز إليها، وسند يستند إليه ومشيّد يشدُّ ظهره ليقوى على تحمل ما يواجهه به يومه من أثقال الحياة، ومتاعب العيش في غضون النهار..

أليس -أيها الأخ- في إختيار هذا الوقت للصلاة حكمة عظيمة ما بعدها من حكمة..؟.

2. وقت الظهر

الظهر صيف يومه وشباب نهاره وعنفوان استوائه، وهو يومى بشدة ضيائه ووضوح أنواره، الى ما في الروح الإنساني النازل الى الدنيا من الفطرة، وأنوار الأقباس الإلهية البكر التي لم تتلوث بعد بدخان الآثام، ولا ظلمات

الذنوب، ومع بلوغ النهار ذروته، وميلانه قليلاً الى الزوال، تتكامل أيضاً - أو تكاد أعمال الإنسان اليومية حيث يشعر بعدها بمحاجته الى فترة استرخاء نفسي، ويحسّ بحاجة الروح اللاهثة الى التنفس والاسترواح، وافتقارها بعد هذا الانغمار بالشؤون الدنيوية الفانية وما تورثه - أحياناً - من غفلة واضطراب وحيرة - الى الانفلات من هذا كلّه، والتوجه بأشراقها الى ينابيع الخلود وعوالم البقاء. فخلاص روح الإنسان من تلك الأثقال، وإنسلاها من بين سحب الغفلة والحيرة وخروجها من تحت زيد التوافه والأباطيل في هذا الوقت من النهار، لا يتّيم إلاّ بالتجاء الانسان وهروبه الى باب الحي القيوم الباقي بتضرع المتعاضد، وتوسل الملهوف، فيقف بين يدي الله سبحانه وتعالى في صلاة الظهر مكتوف اليدين، واجف القلب، شاكراً حامداً لآلائه وأنعمه، متبرئاً من حوله وقوته مستعيناً به وحده، مظهراً - بركوعه - عجزه إزاء جلاله وكبريائه وعظمته، معلناً - بسجوده - ذله وخضوعه تجاه كماله الذي لا يزول ومسبحاً بحمد جماله الذي لا مثيل له ولا شبيه.

فما أشدّ حاجة الانسان في هذا الوقت الى هذه الصلاة التي تنعش روحه، وتذكر قلبه، وتوقظ وجدانه. أفلا ترى معي.. يا أخي - أن الصلاة هنا ضرورة من أعظم الضرورات في الإبقاء على يقظة الإيمان وحيويته في النفوس.

3. وقت العصر

ويأتي العصر منسباً بمهدواته الهادئة، ولحظات سكينته الحاملة طويلاً في أساه العذب سر الآلام الإنسانية الكبرى، وماسحاً بيده الآسية أوجاع

القلب البشري المتعب في حومة الكفاح - من اجل بقاءه نقياً طاهراً - ضد قوى الشر في خفايا الضمير، وخبايا الوجدان هذا الكفاح المرير الذي لا يعلم سرّه الا الله سبحانه وتعالى.

ووقت العصر هو حريف اليوم المثقل بثمار الأعمال، جيدها ورديعها، وكهولة النهار المدلفة بهدوء الى شتاء العمر وهو يشير - بانحدار شمس نحو المغيّب - الى الحزن الوقور الآتي مع شيخوخة الإنسان والقادم في صحبة الجسد المهزوز العاجز الضعيف الذي يقول لسان حاله: انظروا - أيها السادة - فإنّ كل شيء يحول ويزول، ويمضي الى عوالم الغيوب، وينحدر الى ما وراء الشهود.

وهنا ينتفض الروح الراض المتتمرد على الفناء، الساعي الى الخلود، التّواق الى الأبدية، ولأنه مخلوق لهما، فهو يعشق الثبات والبقاء، ويتألم من الزوال والفناء فيتحرك في المؤمن مهيباً به أن يقوم الى ضفاف الأبدية، وبجار السرمديّة، ويلتمس البقاء من الباقي، ويحتمي من الفناء بالحيّ القيوم الذي يقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ لِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (سورة الرحمن؛ 26-27) فيؤدي صلواته مستحضراً في ذهنه هذه المعاني التي تنسج لروحه في كل ركعة وسجدة ثوب بقاءه ورداء خلوده.

ألا ترى - أيها الأخ الحبيب - بعد هذا الذي ذكرناه، كم هي صلاة العصر مناسبة لوقتها، وكم هي ضرورية في أوانها..؟

4. وقت المغرب

الشمس الصفراء الشاحبة تنحدر على مهل نحو المغيب، مخلفة وراءها ظلالاً باهتة، وأشباحاً ناحلة من صور الأشياء والمرئيات.

وكما تغيب الشمس - هذا النجم السماوي الكبير الممتلئ بالحياة والنشاط - بغييب الانسان - هذا الجرم الأرضي العظيم - كذلك، عندما يحين أجله، وتدق ساعة مغيبه وهو لا يترك وراءه سوى أطياف ذكريات، وبقايا صور في ذاكرة أهله ومعارفه.

ويغرق الليل الدنيا، ويغمرها بالظلام كل مساء، وكأنه - وهو الليل الأصغر - يريد ان يذكرها فلا تنسى أبداً ذلك الليل الأكبر القادم في يوم ليلقها في يمه، ويطويها - بما فيها ومن فيها - بلحته...

ويهمس المساء ناصحاً في أذن الإنسان:

أترى - أيها الانسان - كيف يغرق غائصاً في ظلمة الليل كل شيء تحبه وتعلق به، ألا تراه كيف ينفلت من بين يديك، وينسل من بين ناظريك، منطوياً تحت جناحه وضائعا في ثنايا موجه.

فلا تغتر بما تجدد، ولا تفرح بما تكسب، فلا دوام لمطلوبات الدنيا، ولا بقاء لمحبوبات الحياة، فإياك والتعلق بما يمكن أن تفارقه أو يفارقك وإياك والتشبث بالزائنات الفانيات من الأشياء.. بل تعلق بالباقي تبقى.. وتشبث بالخالد تخلد.. وأحب الحي القيوم تحيا.. وتشوق الى الرحمن الرحيم تُرحم.. وفي الظلمات استقبل قبلك.. وأد صلاتك تنتور وتتضوأ مهما اشتد ظلام الدنيا من حولك أو اشتدت عتمة قبرك..

هذا هو معنى الصلاة ومغزاها في مستهل هذا الانقلاب الزماني الكبير، وفي أوان هذا الإدلاج من عالم النور الى عالم الظلام.. فما أعظم - يا أخي - حكمة فرض الصلاة في هذا الوقت، وما أجمل ما تؤديه للإنسان في هذا الأوان من أمن وسكينة واطمئنان...

5. وقت العشاء

ويأتي العشاء، هذا الشتاء الليلي الذي يتغشى بكفنه الأسود وجه الأرض الميتة معلناً بذلك عن موت يوم آخر من أيام الدنيا، ومضيه مثقلاً بأعمال البشر بكل خيرها وشرها الى حافظة الزمن، وعقله الدقيق الذي لا يفوته تسجيل كل صغيرة او كبيرة وحفظها الى اليوم الموعود..

هكذا تمضي صحيفة النهار البيضاء، تجر بقايا نورها، وتختفي وراء أفق السماء، وتُنشَرُ صحيفة الليل السوداء مذكرة الإنسان - الذي كثيراً ما تتابه الغفلة - بقدرة "مقلب الليل والنهار" و "مسخر الشمس والقمر" كما هو شأنه - جلّ شأنه - عندما يطوي بساط الربيع الأخضر من فوق سطح الأرض ويستبدله بذلك البساط البارد المثلج الأبيض أيام الشتاء المقرر.

فالجمع - في الخلق - بين المتناقضات، بياض النهار وسواد الليل، حرّ الصيف وقرّ الشتاء، حياة المخلوقات وموتها، من عمل واحد أحد، فرد صمد، لاحدّ لقدرته، ولا نهاية لإبداعات صنعه. وسجو الليل، وصمت سكينته وهدوات أنفاسه، يقربنا من حافات ذلك العالم الصامت الذي يثوي الأموات في صمته. ويجعلنا نسمع طرقات البلى، ومعاول الفناء على أسوار الدنيا وجدران العالم، حتى ليدوي في أسماعنا طنين الهلاك، ونحسّ في

أرواحنا عويل الدمار وأنين الأنهار، ونصغي بقلوب واجفة الى ذلك النداء الأزلّي: - "لِمَن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار".

المالك الحقيقي، والمتصرف الحقيقي بهذا الكون، بل المعبود الحقيقي، والمحبوب الحقيقي فيه، الذي يقرب الليل والنهار، والشتاء والصيف، والدنيا والآخرة، كما يقرب اي انسان - والله المثل الأعلى - صفحات كتابه، أو يطوي سجلات كتبه.

فيتحلى عجزنا، ويبين فقرنا، وتكشف حاجتنا الى مَن بيده انقاذنا من ظلمات المستقبل، وليل العالم الكبير، القادم قدوم كل ليل في آخرة النهار، فيفزع المؤمن في الوقت الى الصلاة، ويردّد مع سيدنا إبراهيم **ع**: - "لا احب الآفلين" ويتقرب بصلاته الى باب مَن هو المعبود الذي كان وما يزال، ومَن هو المحبوب في كل وقت وأوان، مناجياً الباقي السرمدى بعد خلعه للدنيا الفانية، وطرحه لهذا العالم المائل للانهار في كل لحظة وراء ظهره خارجاً بذلك من ظلمة دنياه، من خلال صحبة خاطفة، ومناجاة مؤقته، مقتسباً النور الذي يُضيء حياته، وملتمساً المرهم الذي يضمّد به جراح قلبه النازفة، أسفاً على مَن زال من أحبائه وفراق مَن فارق من إخوانه ومعارفه، ساكباً عبرات قلبه، ولوعات صدره على عتبة باب تلك الرحمة، قائماً بوظيفة العبودية في خاتمة يومه قبل أن يخلد الى النوم، موته الأصغر الذي يجر به كل ليلة. والذي لا يدري ما سيؤول أمره فيه عندما يغمض عينيه، ويعقد الكرى أجفانه.. فتتهاوى عند أبواب النفس كل محبوباته الدنيوية، وتذوب في حرارة صلاته كل أهوائه ورغائبه الزائلة الفانية، ويتلاشى خوفه ويزول ذله، ويتحول الصغار في روحه إزاء السادة الدنيويين الى عزّ شامخ،

وإباء رفيع، لانه أمام من هو القديس الكريم، ومائل في حضرة مَن هو الحفيظ الرحيم.

فيفتح صلاته بالثناء على رب العالمين الكريم الرحيم، الكامل المطلق الكمال، الغني المطلق الغني، فيرقى الى مقام الضيف المكرم في هذا الكون، والى مقام الموظف المرموق فيه، رغم ضعفه وفقره وعجزه، لأنه قد سما الى مرتبة الخطاب: - "إيّاك نعبد" فينتسب بذلك لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد. فيقدم بين يدي الله لله بقوله "إياك نعبد" و "إياك نستعين" عبادات واستعانات الجماعة الكبرى، والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات، طالباً له ولهم الهداية الى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنور الموصل الى السعادة الأبدية بقوله: - "اهدنا الصراط المستقيم" ويتفكر ويتأمل في كبريائه وعظمته سبحانه وتعالى الذي ما هذه الشمس المستترة، وما هذه النجوم المتألثة إلاّ جنود مجنّدة لأمره جلّ وعلا، وإن كل واحد منها ما هو إلاّ مصباح في دار ضيافته هذه، وخادم له مطيع لأمره فيكبر عندئذٍ قائلاً: - "الله أكبر" ثم يهوي راکعاً.

وإذا كانت الأكوان والعوالم، وإذا كانت السموات والأرضين، وما فيهنّ ومَن فيهنّ ما فتتوا ساجدين سجدتهم الكبرى، مسبحين تسييحاتهم العظمى، فما أجمل أن يأخذ الانسان أيضاً مكانه في صف الساجدين على سجادة الغروب المبسوطة بين أقطار السموات والأرض، مكبراً مع تكبيرة الوجود لينال أجر صلاة الجماعة الكونية العظمى، ويحصل على شرف العبودية الممتثلة لأوامر مولاها..

فصلاة العشاء بهذا المعنى، وبهذا الفهم الشامل - هي معراج المؤمن،
والتي يسمو بها، ويشاهد من عليائها آيات الله وأنعمه وآلائه.

تلك - يا أخي - هي حكمة الصلاة في هذه الأوقات التي هي
منعطفات يومية، وانقلابات زمانية، لكل وقت وزمان منها نوع من أنواع
فيوضات الرحمة، ولون من ألوان تجليات الأسماء الحسنى. فيبادر إليها المؤمن
بصلاته حتى لا تخطئه بركاتها، ولا تفوته رحمتها.

الشجرة

في البذرة ينطوي ماضي الشجرة ومستقبلها، وعندما تورق شجرة ما وتفتح أزهارها، وتنضج بعد ذلك ثمارها، فإنّ هذه الثمار ينبغي أن تتقدم بشكرها للبذرة نفسها، وللجذر الممتد عميقاً في باطن الأرض، وللجذع الذي حمل الأغصان ومّر من خلاله النسغ الصاعد المحمّل بالماء والأملاح من باطن الأرض لكل ورقة وزهرة وثمره.

أما إذا ركب هذه الثمار الغرور، وأصابها العُجْبُ وتعالَت شامخةً على أغصانها وتشبّثت بحاضرها، وتكرت لماضيها، وتناست أصلها وظنّبت - في غمرة خيالاتها - أنّها في غنى عن غذاء جذورها وخمائر جذعها فإنّها تكون بذلك قد خانَت نفسها. وإحترمت حياتها، وأوردت ذاتها موارد الموت والهلاك.

الإنسان أيضاً هو أنفَس ثمار الوجود، وأجمل ازهار الكون، وأكثر أشجار الأرض طيبة، ورسوخاً وجمالاً وظلاً. تخضّر الأرض بإخضرار نفسه، ويخضّل العالم بإخضلال روحه، ويندى الوجود بأنداء قلبه وتتفياً الشمس نفسها بوارف ظلّه.

هذا هو الإنسان الكامل العارف الجامع - في لحظة - بين ماضيه وحاضره ومستقبله، النافذ ببصيرته الى جذوره وأصوله الموعلة في القدم.. والعالم بأنه بالمشيئة قيّد العالم، وبالقدرة نزل الأرض، ومن الحيّ استمد الحياة، ومن الخالق استوهب خلقه وقام يدبُّ على الأرض بشراً سوياً، وهو بالبصيرة

نفسها يُطَلَّ على مشارف الأبد ويرنو الى ضفاف الخلود، ويهفو باشتياق الى عالم البقاء، وهو على ثقة ويقين بأنه بالباقي سيبقى، وبالخالد سيخلد، ومن الأبدى سينال الأبد ويحصل على الخلود.

فهذه النظرة الشمولية الجامعة - عند الإنسان المؤمن - هي التي تعطي سلوكيته في التعامل مع الآخرين روحاً نابضاً بالحياة، وحباً مرهفاً لا تحكمه ضرورات الأزمنة والأمكنة ولا تفرضه المصالح والمنافع الضيقة المحدودة.

فهو حين يصدق مثلاً، لا يصدق بدافع الضرورة ولكنه يصدق لأنه يجد في الصدق جمالاً تهفو الروح إليه، ويسعى إليه الوجدان ويطلبه الصدق الأعظم الذي به قام الوجود وعليه رسَّت السموات والأرض..

وهو حين يحب، لا يحب لغرض، ولا يصطفي لمنفعة، ولكنه يحب لأن الحب هو الدم الذي يغذو عروق العوالم والأكوان، ويمد قلب الوجود بدفقات الحياة، ويمنح الزهرة سرّ الجمال، والفراشة سحر الألوان، والبلبل عذوبة التغريد، ويهدي القمر نوره الأنوس، والشفق الأحمر حمرة المهادثة، والفجر أنفاسه الندية، والجدول خريزه الحزين، والقلب الإنساني جمال الشجن، والروح أسمى الحنين الى عالم الحب والجمال والخلود في رحاب الآخرة ومنازل الجنة..

وهو حين يشجع ويكرم ويهبّ المأل والنفس، فإنه لا يفعل هذا من أجل أمجاد أرضية زائلة سيطوبها الزمن يوماً ما ويعني عليها الموت والعدم، ولكنه يكرّم ويجود لأنه راغب بالخلود، محب للكرام الأول والآخر الذي لا يرضى لعباده المؤمنين ثواباً وأجرأ بأقل من الخلود وبأدنى من البقاء..

وعندما يضع روحه على كفيّه، ويعلو مصعداً في دروب الجهاد - من أجل الإيمان - حتى ينال الشهادة ويفوز بالميتة الحمراء الدامية، لا يقدم على البطولة من أجل قيل وقال، ولا من أجل أكف تصفق وحناجر تهتف، ولكنه يفعل هذا ليضع روحه المفلعة بالنجيع بين يدي الله واهب الروح الذي لا يرضى لها أن تكلم إلا من أجله وفي سبيله.

وها هو "النورسي" مفتق المعاني، ومكتشف درر المعاني يتحدث في هذا المعنى فيقول:

أما الإنسان المنحصر في حلقة واحدة من حلقات الزمن وفي دائرة واحدة من دوائره وهي دائرة الحاضر - المنقطع عن الماضي والمبتوت الصلة بالمستقبل - فسوف تضيق نفسه بضيق زمانه، وتتحدد آفاق نظرتة، ويدخل مرغماً في عنق الزحاجة الزمنية الضيقة الخانقة التي تسد منافذ المروءات في نفسه وتوصد أبواب المكرمات في وجدانه، وتتحول سجاياه الإنسانية الموروثة والتي لا تعرف الحدود، الى سجايا نفعية ضيقة، وأخلاق إنتهازية متلونة يعامل من خلالها الناس الذين يعاصرهم ويعايشهم وكأنهم كائنات زمانية محدودة بحدود هذا الحاضر الذي يوجدون فيه، وكأنه لا يعرف من أي ماضٍ تليد مفعم بالمكرمات قد أتوا، ولا إلى أي مستقبل سيلتقيهم في رحابه بعد انقضاء هذا الزمن الدنيوي مهما بدا طويلاً في ظاهر أمره.

وعندما ينظر الإنسان المحصور في دائرة الحاضر هذه النظرة الكليلة القاصرة، تتحول المحبة لديه، والتي هي منبع كل الفضائل البشرية - من كونها عنصراً من عناصر امتداد الإنسان في الأشياء من حوله، ونفاذه في

الكائنات الحيّة، وخلوده في البشرية التي سيلتقيها على أبواب الآخرة. الى مجرد عاطفة ضيقة يابسة، توريها المصلحة وتلهبها المنفعة، فتفقد بذلك حرارة الروح ونبض الوجدان، ودفء القلب الذي يعطي عطاءً مَن لا يريد جزاءً ولا شكوراً..

وحتى محبته لأبيه أو زوجته أو ولده أو أمه، تغدو محبة يكتنفها الجفاف، ويعتورها اليبس لأنها لا ترتوي من ذلك الحنان الأصيل العميق الذي به ترقى المحبة الى مرتبة الخلود، وترتفع الى قمة الأبد، ولا يستطيع الموت نفسه أن ينال منها، لأن المحب قد أعطى من قلبه للخلود ووهب للبقاء، ولم يعط من أجل لحظة عابرة، أو لحة خاطفة، لذا كان المتحابون في الله كما ورد في الحديث الشريف - على منابر من نور يوم القيامة يغطهم عليها الأنبياء والصديقون والشهداء..

فالماضي والمستقبل هما عَصِيوَا الإنسان وعكازتاه اللتان يتوكأ عليهما في مسيره عبر شعاب الزمن ومنعطفات التاريخ، فعلى قدر استيعابه لماضيه وجذوره وأصوله وخلفيات تأريخه المتصلة بما "قبل الزمن" والمرتبطة بمشيئة الغيب وإرادة القدر الإلهي..

وعلى قدر وعيه وقدرته على التأمل المستقبلي والإستحضار الدائم للخطات المآل والمصير والنفاذ ما وراء "الزمن" الى حيث "الأبد" الذي سترسو سفينة الإنسان على ضفافه في خاتمة رحلته.. أقول: على قدر هذا الاستيعاب للماضي، والوعي للمستقبل والمصير، تكتسب مسيرة الإنسان في هذا العالم خطوها الرصين، ومسيرها الهادئ الموزون على الصراط الذي يجنب الإنسان الإنحراف والضياع والشتات، ويمنحه النور الذي يبدد ضبابية

الفهم وعشوائية التصرف والسلوك.

أما الإنسان الذي يحدّد نفسه بـ"الحاضر" وينغمس في لحظاته وساعاته، ويغرق في أمواجه ولججه، قاطعاً بذلك صلته بجذور ماضيه، واضعاً أصابعه في آذانه حتى لا يسمع نداء المستقبل، وهتاف الآتي، ومستغشياً ثيابه حتى لا يبصر لمعات الخلود، وبوارق الأبد، فهو إنسان يثير الإشفاق، لأنه قد اختار - دون مبرر- الكفر، وحكم على نفسه بالعذاب الأبدي في سجن الآخرة الرهيب..

إذن.. لماذا هذا العذاب الأبدي الذي تقشعر لهول تخيله -مجرد تخيله- الأبدان.. وترتعد له القلوب وتئن فرعاً -من مجرد تصوره- الأرواح..؟

يجيب "النورسي" على تساؤلنا هذا قائلاً:

لما كانت الدنيا هي مزرعة الآخرة، فالحقائق صغيرة كانت أو كبيرة، والأباطيل صغيرة كانت أو كبيرة، تثمر وتتسبل في الآخرة.. فالكفر هذه البذرة السامة تشير هنا وتومئ الى شجرة "الزقوم" تلك وتقول: أنا أصل تلك الشجرة وخميرتها، فمن يحملني في قلبه من المنكوبين هنا -في الدنيا- فسأكون ثمرة خاصة له من تلك الشجرة الملعونة في الآخرة.

ومادام الكفر تعدياً على حقوق غير محدودة. وتجاوزاً عليها، فهو إذن جنابة غير محدودة، لذا يجعل صاحبه مستحقاً لعذاب غير محدود.. فلئن كان القتل الذي يحدث في دقيقة واحدة يذيق القاتل خمس عشرة سنة من العذاب على الأقل أي ما يقارب من -ثمانية ملايين دقيقة- يعتبر موافقاً للعدالة البشرية، وعدته موافقة للمصلحة العامة وحقوقها فلا جرم أن دقيقة

واحدة من الكفر المطلق - على اعتبار أن الكفر يقابل ألف قتل - تقابل إذن بعذاب يقرب من "ثمانية مليارات من الدقائق" وفق تلك العدالة الإنسانية نفسها، فالذي يقضي سنة كاملة من عمره في الكفر، يستحق إذن عذاب "ترليونين وثمانمائة وثمانين ملياراً من الدقائق" فكيف بمن قضى عمره كله في الكفر؟. ألا يكون أهلاً لـ"خالدين فيها أبداً"؟.

لابد أن الخير واللذة والنور والجمال والإيمان وأمثالها تسيل الى الجنة، ويتساقط الشر والألم والظلام والقبح والكفر وأمثالها من الأمور المنكرة الى جهنم.. فتسيل سيول هذه الكائنات المتلاطمة الى ذنك الموضعين، وتهدأ ساكنةً عندهما في خاتمة الحياة الدنيوية..

* * *

أنت... أيها الاستاذ - شوق مذابٌ في قوارير الذكريات، وحنين دقياق في جداول الأيام والسنين، وقلب - رغم قوته - يسيل حباً، ويتقطر لوعةً، وينسابُ إشتياقاً للماضي الظليل الذي إشتَبَّتْ في تربته درر أفكارك، وغرست في أرضيته شتلات روحك، واستزرعت في سواقيه حبات القلب والوجدان.. هاهي "الشجرة" -رغم كل الأنواء والأعاصير- تعلو وتسمو، وتخضر وتورق وتزهو وتثمر، بعد ربع قرن من الآلام والاحزان والدموع، وهما هو "النور" - رغم كل أسداف الظلام - يتدفق وينساب غامراً الوهاد والبطاح نافذاً الى القلوب والأرواح، ليغسلها من عفونات الظلام ويطهرها من سموم الشكوك والأوهام..

وتبدأ "رسائل النور" المحظورة تأخذ طريقها الى المطابع ودور النشر بعد

استحصال قرارات البراءة بحقها من قبل مختلف المحاكم.. ونفرح بهذا العيد الإيماني الكبير - عيد رسائل النور- وهي تصافح العيون وتحتضن الأرواح.. ونحمد الله على هذا النصر العظيم.. وتشعر أن من حق ماضيك عليك أن تعودَ إليه بعض العودة، ومن الأماكن والمواطن أن تلمَّ بها إمامة الزائر المشوق.. وترجع إليها رجوع من آلمه البعاد وهدته أوجاع الفراق.. فلكَ في كل بقعة حللت بها، وارتحلت منها جزء من نفسك وقطعة من كيائك.. وهل لك من نفسك شئ وهي موزعة كلها في نفوس تلامذتك ومعارفك ممّن التقيتهم في مختلف الظروف والمناسبات.. وهل لك من نفسك شئ وهي مقسّمة هنا وهناك بين الأماكن والمواطن التي كنت تنتقل فيها في سنوات نفيك وغربتك..؟.

وتبدأ رحلة العودة الى مواطن الذكريات، وتقف في محطاتها الواحدة تلو الأخرى وقفة التأمل والتفكير والإعتبار.. وتحت خطاك نحو "بارلا".. وتقترب من مشارفها.. وتقع عينك على حقولها وبساتينها.. فيخفق قلبك وتدمع عينك.. وتغص بالذكريات.. وتطفح المآقي بالعبرات.. ويتساقب الحنين... وتنساب الأشواق... ويصرخ روحك في غمرة وجدّه:

إيه "بارلا".. يا شقيقة الروح.. ورفيقة الفؤاد.. وبستان الفكر.. وحقل الأشواق.. ومستودع الآلام.. ومزرعة الآمال..

ها أنذا أعود إليك - بعد عشرين عاماً - لألتقي في ربوعك بعض نفسي.. ولأعانق في أحواثك مزع الروح وبقايا الوجدان.. فوق كل سفح وقمة وعند كل واد وحزن، وعلى كل شجرة وغصن وزهرة، وفي الشعاب والمنعطفات وبين الحقول والبساتين.

ويخرج أهل "بارلا" كلهم شباباً وشيباً، رجالاً ونساءً وأطفالاً، يستقبلونك ويرحبون بك وقد هاجت بهم، الأشواق، وطفحت بهم المشاعر، فتدمع عيونهم فرحاً وتجيش عواطفهم محبة وإكراماً وتعظيماً..

وتمضي تشق طريقك بصعوبة بالغة بين جموع الأهالي الى دارتك الحبيبة التي أمضيت فيها ثماني سنوات كاملات.. تلك الدارة التي شهدت منابع فكرك الأولى.. وحملت معك أثقال أحزانك وآنست لوعة غربتك.. وهدهدت أوجاع وحشتك.. وضمت حناياها عليك في ظلمات الليالي وهدوات سكينتها وأنت غارق في تأملاتك أو وأنت في صلواتك وذكرك وتهجدك..

وتتأقل خطواتك وأنت تقترب من بيت تلميذك القديم "مصطفى جاويش" وهو النجار الذي نجد لك تلك الغرفة بين أغصان الشجرة التي كنت تقضي فيها ساعات العبادة والتأمل في فصل الصيف..

وإذا بالبيت الحزين مقفر موحش بعد أن رحل صاحبه عن الدنيا يوم كنت منفيّاً في "قسطموني" وقفل كبير معلق على باب البيت وكأنه يقول:

أيها المارون.. مروا بسلام ولا تقتحموا أقفال الأحزان الكبيرة..

اتركوا أشجان هذا البيت المتفرد تنعم بالصمت والسكون..

وتشعر وأنت تقف امام البيت بجلال الآلام البشرية، وبجمال الحزن الصامت المهيب.. وتجهش بالبكاء.. وتغرق عينك بالدموع..

ثم تمضي قلباً لهيفاً، وروحاً خافقاً ونفساً مولهة نحو تلك "الشجرة" الطيبة المباركة التي آوتك يوم عزّ المأوى.. وضممتك بين حناياها يوم تجنّبك الناس، وجافاك البشر، وظللتك أغصانها وأوراقها من حُرور الأيام وقساوة بني

الإنسان، وفرشتُ لك حضرة قلبها، ومنحتك ربيع نفسها في وقت كان شتاءً بشرياً رهيباً، يحيط بك من كل جانب، وصحارى إنسانية قاحلة جرداء تهبُ بسموم أحقادها عليك من كل مكان..

وتقترب لحظة اللقاء.. وتسير حتى إذا أصبحت في متناول يديك، إذا بك تميل عليها وتحتضنها إحتضان من يضمُّ إليه جزءاً من نفسه، وقطعة من كيانه وتلتصق بها إلتصاق العائد الى حضن أمه بعد غياب طويل، وتلمس جذعها وأغصانها وأوراقها بيدك وعينك وبكل جارحة من جوارح كيانك...

وتلتصق بها وجهك المبلبل بالدموع، وأنت تغالب دمعك، فلا تستطيع، وتحنق أزيز الحنين فيأبى عليك ويستعصي على رغبتك، فإذا بنشيجك يتعالى، وببكائك يرتفع.. ويرين على الحاضرين من حولك صمت خاشع وسكون أسيان..

وتصعد الى غرفتك وحيداً متفرداً كما صعدت إليها قبل عشرين عاماً... ويظلّ تلامذتك والناس معهم في مكائهم صامتين لا يرمون.. وتدلف الى معتزلك القديم وتظلّ فيه مدة ساعتين.. ويسمع الناس صوتاً حزيناً باكياً ينبعث من غرفتك، وأنت تستعيد ذكرياتك وأيامك التي أمضيتها فيها..

وتدمع أعينهم في صمت احتراماً لآلام النفوس العظيمة التي لا يسعها الكون نفسه، ولا يقدر على استيعابها واحتوائها غير رحمة الله..

الفصل الرابع

قراءات في فكر النورسي

أسماء وحروف

في ساعات التواصل الروحي، والتنافذ الفكري الوجداني، بين الانسان والوجود، في هذه الاوقات الصافية المتألقة، يقترب الانسان كثيراً عبر إنسياب ذاته من روح الوجود، حيث يحسّ بحرارة أنفاسه ويتّسّمع لنبضات قلبه وخفقات وجدانه، وحين يصل الانسان هذه النقطة الخطرة من القرب والوصال ينتابه شعور طافح بالإنشاء الروحي، فيتوهم - وهو في هذه السكره - وكأنه قد صار هو والوجود شيئاً واحداً، وذاتاً متوحدة، وكياناً مندغماً، وأنّ أحدهما قد نَقَدَ الى الآخر وحلّ فيه، واتحدّ به.

صحيح أنّ الإنسان "كلمة" في كتاب الوجود الكبير، هذا الكتاب الذي يضم بين دفتيه ملايين الملايين من الكلمات والنقط والحروف. وقد يكون "الإنسان" أعظم كلماته وأكبر موضوعاته، وأروع صفحاته ولكنه -على كل حال- ليس هو الكتاب نفسه، أو كل الكتاب.. لأن الكلمة مهما عظمت -وفي أي كتاب- حين تزعم أنها كل الكتاب، وأن كل

الكتاب منطوق فيها، تكون بهذا الزعم قد جانبت الصواب وجارت على الحق والعدل.

وكل "كلمة" في كتاب "الوجود" هي في الوقت ذاته حرف لا معنى له، إذا لم تأخذ مكانها المناسب بين ما يسبقها أو يعقبها من كلمات، ونقطة تائهة ضائعة في فضاء الوجود ما لم تجد موضعها تحت حرف من الحروف، أو فوق كلمة من الكلمات.

فالنمل والبعوض والذباب مثلاً، قد لا يكون لها معانٍ قائمة في ذواتها ولكنها تكتسب الكثير من المعاني والمغازي، إذا ما عُربَّت أماكنها ووظائفها في هذا الكتاب الكبير، وكذلك قل في كل حيوان ونبات وجماد.

فالأرض منزل هذه البشرية، حرفٌ لا معنى له ما لم تمنحها الأكوام والعوالم معناها.. والأكوام والعوالم نفسها حرف لا معنى له ما لم يمنحها معناها الوجود الأعظم والأكبر.. والوجود نفسه على سعته وإحاطته وشموله حرف لا معنى له ما لم يعطه الله سبحانه وتعالى المعنى الذي يريد والمغزى الذي يشاء.

والإنسان نفسه - وهو محصلة هذا الوجود - حرف لا معنى له ما لم يكتسب معنى وجوده ومغزى خلقه من الله سبحانه وتعالى.

أما "اللّٰه" جل جلاله فهو وحده "الإسم الأقدس" القائم معناه بذاته، الغني بنفسه الذي لا يفتقر وجوده - جلّ وعلا - لأحد، وكل أحد سواه يفتقر إليه ويحتاج لعونه ورحمته وإحسانه فالوجود الحقيقي هو "الواجب الوجود" وحده، وكل موجود آخر إنما يستمد وجوده منه ويتناول ماهيته من

عنده. والإنسان خلال مجاهداته ورياضاته الروحية للوصول الى "واجب الوجود" قد يغيب عن ذكره وفكره ذوات جميع الأشياء، الآ ذاته، ويظلّ يطلبُ الفناء عن نفسه حتى ينال ذلك، وتغيب عن ذكره وفكره السموات والأرض وما بينهما، ويتلاشى "الكلّ" ويضمحل ويصير هباءً منثوراً. ولا يبقى إلاّ "الواحد" "الحق" "الموجود" "الثابت الوجود".

فالقضية الى هذا الحدّ لا بأس بها ولا خطر منها، ولكن الخطورة حين ينزلق الإنسان، وينساق مع مغريات الفكرة وموحياتها الشعرية والجمالية، فلا يرى فيما يحيط به من موجودات، سوى أوهام وخيالات وأشباح وظلال لا وجود لها، ولا حقيقة لماهيتها وصورها، وأن الشئ الذي كان يظنّه أولاً أنه ذاته المغايرة لذات "الحق" ليس شيئاً في الحقيقة، بل ليس من شئ إلاّ ذات "الحق" وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذي يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها، فإنه وإن نُسبَ الى الجسم الذي ظهر فيه، فليس هو في الحقيقة شيئاً سوى نور الشمس، وان زال الجسم زال نوره، وبقي نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم، ولم يزد عند مغيبه.²

هذه هي فكرة "وحدة الوجود" عرضناها عرضاً موجزاً ومبسّطاً، وهي الفكرة التي شغلت وما زالت تشغل أذهان المفكرين والمتصوفين على اختلاف مذاهبهم ونحلهم وأديانهم، وقد سئل الأستاذ "النورسي" عنها بما يأتي:

سؤال: إن مسألة "وحدة الوجود" تعتبر من قبل الكثيرين من أرفع المقامات، بينما لا نشاهدها عند الذين هم من أعظم الأولياء وفي

² أنظر: "حي بن يقظان" لابن طفيل.

مقدمتهم الخلفاء الراشدون، والصحابة الكرام، وآل البيت والمجتهدون من الأئمة الاربعة والتابعين، فهل الذين أتوا من بعد هؤلاء اكتشفوا طريقاً أسمى وأرفع؟ وهل سبقوهم في هذا المضمار؟..

الجواب: كلاً... وحاشا أن يكون الأمر كذلك، فليس في مقدور أحد أن يصل الى مستوى أولئك الأصفياء الذين كانوا أقرب النجوم اللامعة الى شمس الرسالة وورثتها، فضلاً عن أن يسبقوهم فالصراط المستقيم انما هو طريقهم.

أما "وحدة الوجود" فهي مشرب ونزعة وحال، وهي مرتبة ناقصة، ولكنها لكونها مشربة باللذة والنشوة، فإن الذين يملونها أو يدخلون اليها لا يرغبون في أكثر الاحيان مغادرتها، فيبقون فيها، طائنين أنها هي المرتبة الأخيرة التي لا تسمو فوقها مرتبة ولا يطالها أفق.

لذلك فإن صاحب هذا المشرب إن كان من الذين تجردوا من المادة ومن وسائلها، ومزقت روحه ستار الأسباب، وأصبحت منهمكة في لجة الإستغراق، ولكن لا عن طريق "وحدة الوجود" بل ربما عن طريق وحدة "الشهود" الى مرتبة معينة من مقام الكمال الناشئة عن طريق "وجداني" لا عن طريق "علمي" وقد يصل به الحال الى انكار وجود "الكون" عن تركيز انتباهه في جود الله.

أما إن كان صاحب هذا المشرب من الذين أغرقتهم "المادة" وأسبابها، فإن نزعته هذه في "وحدة الوجود" قد تؤدي به الى إنكار "وجود الله" سبحانه وتعالى، لكونه غلقاً في "الوجود الكوني" بكل أفكاره وأحاسيسه.

نعم، إن "الصراط المستقيم" هو طريق الصحابة والتابعين والأصفياء الذي يرون أن حقائق الأشياء ثابتة، وهي القاعدة الكلية لديهم، وهم الذين يعلمون أن الأدب اللائق بحق الله سبحانه وتعالى هو الاعتقاد بـ"ليس كمثل شئ" أي أنه منزّه عن التشبيه والتحيّر والتجزء، وإن علاقته بالموجودات علاقة الخالق بالمخلوقات.

فالموجودات ليست اوهاماً كما يدعي أصحاب "وحدة الوجود" فهذه الأشياء الظاهرة هي من آثار الله سبحانه وتعالى، إذن فليس صحيحاً قولهم: - لا موجود إلاّ هو- وإنما الصحيح: - لا موجود إلاّ منه-، ذلك لأن الحوادث لا يمكن أن تكون نفس القدس، أي "أزلية".

وهكذا فإن -سلطنة الألوهية- تقتضي وجود أسماء حقيقية متعددة أمثال: "الرحمن، الرزاق، الوهّيب، الخلاق، الفعال، الكريم، الرحيم" وهذه الاسماء والصفات تقتضي كذلك وجود مرايا حقيقية لها.

والآن ما دام اصحاب "وحدة الوجود" يقولون: لا موجود إلاّ هو، وينزلون الموجودات منزلة العدم والخيال، فإن اسماء الله تعالى أمثال: "واجب الوجود، الأحد، الواحد" تجد مجالها وإنعكسها هنا. ولكن أسماء الله الحسنی الأخرى أمثال: "الرحمن، الرزاق، الجبار، الخلاق" لا تجد تجلياً لها الحقيقية هنا، بل تصبح اعتبارية وإضافية، بينما هذه الأسماء هي أسماء حقيقية، ولا يمكن أن تكون ظلاً، وهي أصلية ولا يمكن أن تكون تابعة.

وهكذا فإن الصحابة والمجتهدين الأصفياء وأئمة أهل البيت، عندما يشيرون الى أن "حقائق الأشياء ثابتة" يقرون بأن لجميع الأشياء وجوداً

-وإن كان عرضياً- أسبغ الله عليها بالخلق والإيجاد. ومع أن هذا الوجود يعتبر وجوداً عرضياً وضعيفاً وظلاً غير دائم بالقياس لوجود واجب الوجود إلا أنه ليس وهمًا وليس خيالاً فأَن الله سبحانه وتعالى قد أسبغ على الأشياء "صفة الوجود" بتجلي اسمه "الخالق" وهو يلسم هذا الوجود.

لنفرض أن في هذه الغرفة أربع مرايا جدارية كبيرة موضوعة على جدرانها الأربعة، فصورة الغرفة سترسم على كل مرآة من هذه المرايا، ولكن كل مرآة ستحتوي على صورة الأشياء بالشكل الذي يناسب وصفها ولونها، أي أن كل مرآة ستحتوي على منظر خاص للغرفة.

فاذا دخل رجلان الى الغرفة، واطلع أحدهما على إحدى هذه المرايا فانه يرى جميع الاشياء، مرتسمة هناك وعندما يسمع بوجود مرايا أخرى وما فيها من صور، فإنه يعتقد بأنه نفس صور المرايا التي تنعكس على مرآته والتي تشغل حيزاً ضئيلاً منها بعد ان تضاءلت صورتها وتغيرت فيقول: إنني ارى الصورة هكذا. اذن فهذه هي الحقيقة.. يقول الرجل الثاني: نعم إنك ترى ذلك، وإن ما تراه صحيحاً، ولكن ليس هو في الواقع صورة الحقيقة نفسها، فهناك مرايا أخرى غير المرآة التي تحدد فيهما، والمرايا الأخرى ليست صغيرة وضئيلة ومنعكسة من الظلال كما تراها في مرآتك.

وهكذا فإن كل اسم من أسماء الله يتطلب مرآة خاصة به على حدة، فمثلاً إن الاسماء الحسنی أمثال: -الرحمن الرزاق- لما كانت أسماء حقيقية وأصلية فإنها تتطلب موجودات لائقة لها، ومخلوقات محتاجة فعلاً الى الرزق والى مثل هذه الرحمة.

فكما يتطلب اسم "الرحمن" مخلوقات حيّة محتاجة الى الرزق في عالم حقيقي، فإن اسم "الرحيم" يتطلب جنة حقيقية. لذا فإن اعتبار اسماء معينة من أسماء الله الحسنى أمثال -الموجود، الواحد، الأحد، واجب الوجود" هي الأسماء الحقيقية فقط وتوهم الأسماء الحسنى الأخرى تابعة وظلاً لها حكم غير عادل يتنافى مع ما يجب لهذه الأسماء من تقديس وخشوع واحترام.

اذن فالصراط المستقيم، وصراط الولاية الكبرى. إن هو إلا طريق الصحابة والأصفياء والتابعين وأئمة اهل البيت والائمة المجتهدين، وهو الطريق الذي سلكه التلاميذ الأول للقرآن الكريم.

(سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)

﴿رَبِّ بِنَّا لَاأَ تُرْعِغْ فُقُلُوبِنَّا بِبِعْغَلَدَ إِذْ هَهَلَدَ بِنْتِنَا وَهَهَبَبَ لِنَبَا مِمِّنَ لِّلْسُنْكَ رَرْحَمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة آل عمران؛ 8)

اللّٰهُمَّ صل على سيدنا محمد الذي أرسلته رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

القوة و الضعف

أيّهما القوى وأيّهما الضعيف... الأم أم رضيعها.. اللبوة أم شبلها.. والدجاجة أم فرخها..؟ وإذا كانت القدرة على التأثير في الآخرين، وتحريكهم في خدمتنا، والاستحواذ على ما عندهم من نفع لدينا هي واحدة من عناصر القوة ومعانيها فكم يكون في "ضعف" الرضيع من القوة ما يجعله قادراً على تفجير ينابيع الرحمة والحنان في صدر أمّه...؟ وكم هي القوة التي ينطوي عليها دلال الشبل عندما تأتيه أمّه بالطعام بينما تبقى هي تتضور جوعاً...؟ وكم يبدو الفرخ في "ضعفه" وصغره قوياً وكبيراً حيث يمنح جناح أمّه من القوة ما يجعلها تنافح عنه انقضاض البزاة والعقبان ولو كان في ذلك هلاكها...؟..

إذا فُيِّدَ للبشرية أن تتجنب في المستقبل حرباً نووية شاملة، فلن يكون الفضل في ذلك لحكمة القادة السياسيين، أو رجاحة عقل القادة العسكريين، وإنما الفضل الذي ستذكره البشرية بالامتنان سيكون للطفولة البريئة العاجزة الضعيفة التي ما زالت تصرخ بلسان الحال:

الرحمة.. الرحمة.. لا تجعلوا من أجسادنا -نحن الأطفال- شواءً لقنابلكم النووية.. إن دموع الأطفال، ونواح الثكالي، وأنين المتألمين، وصرخات المعذبين، وأوجاع المرضى.. وغيرها وغيرها من سلسلة الآلام البشرية التي تملأ الدنيا وتغطي الأرض ليست بالتالي هي النقيض لفرح الأقوياء الذين لم يعرفوا الألم، ولم يجربوا الدموع..

لا.. ليس الأمر كذلك ولا هو من سنن الحياة ونواميس الوجود.. فالقوة مهما تعاضمت وكبرت واتسعت فهي تحمل في أعماقها بذور ضعفها... والضعف مهما تهاوى وتضائل وانطوى على نفسه فهو يحمل في جوفه بذور قوته، ونواة شموخه وعظمته.

فكم من جبار تهاوى سريعاً وهو في أوج جبروته وعظمته وكم من حضارات انهارت واندثرت وهي في قمة مجدها وعنفوان قوتها..

ألم يتعهد "فرعون" القوي المتأله "بذور ضعفه" وهلاكه يوم احتضن "موسى" عليه السلام طفلاً رضيعاً ورباه في حجره؟...

وبلال في ضعفه وفقره وعريه، وهو ملقى على رمال الصحراء اللاهبة في رمضان مكة، تدمي ظهره الشياطين، وتأكل ألسنة الشمس اللاذعة من لحمه، ألم يكن أقوى من كل أعدائه الأقوياء لأنه (أحد.. أحد.. أحد..) كان يهزّ ضمير الكون ويرجّ قلب الوجود، فتتسارع إليه قوى الأرض والسماء بالمساندة والتأييد والتثبيت.

ومحمد **ق** في موقفه ذاك الحزين، وقد ردّه عظماء الطائف وسادتها، ذلك الرّد الشنيع وأغروا سفهاءهم وصبيانهم به يرحمونه بالحجارة، ويخصبونه بالحصباء، فيلتجئ الى بستان من بساتين "الطائف" ويجلس تحت شجرة من أشجاره متعباً منهوكاً، ألم تكن قوى العوالم والأكوان معه وهو يهتف بكل قلبه: "إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي" فيعرج به الى السموات العلى في ضيافة الرحمن الرحيم، فيمسح أحزانه، ويواسي أشجانته، ويمنحه من فيوضات كرمه مالا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وإبراهيم عليه السلام وهو يهوي الى نار "النمرود" ألم يكن أقوى منه
ب-عليه بحالي، غيبي عن سؤالي- نعم، ان الانسان المغلوب أمام العقرب التي
ليست لها عيون، وأمام الحية التي تدبّ على بطنها من دون أرجل، ليست
قدرته هي التي ألبسته الحرير من دودة صغيرة، وأطعمته العسل من حشرة
سامية، وإنما ذلك ثمرة ضعفه الناتجة منه، تسخير ربّاني، وإكرام رحماني.

فيا أيها الانسان:

ما دامت الحقيقة هكذا، فدع عنك الغرور والأناية، وأعلن أمام باب
الألوهية عجزك وضعفك بلسان الإستمداد، وفقرك وحاجتك بلسان التضرع
والدعاء. وأظهر بأنك عبدٌ لله خالصاً قائلاً: (حسبنا الله ونعم الوكيل)
فارتفع وارتق في مدارج العُلا، ولا تقل: -انا لست بشئ وليست لي أهمية
تذكر حتى يسخر لي هذا الكون - من قبل الحكيم المطلق - عن قصد
رعناية، وحتى يطلب مني الشكر الكلي-.

لأنك وإن كنت بحسب نفسك وصورتك الظاهرية في حكم اللاشئ.
إلا أنك بحسب وظيفتك ومنزلتك، مشاهد فطن ومتفرج ذكي على
الكائنات العظيمة، وإنك اللسان الناطق البليغ الذي ينطق باسم هذه
الموجودات الحكيمة وإنك القارئ الداهي والمطالع النبهي لكتاب العالم هذا،
وإنك المشرف المتفكر على هذه المخلوقات المسبّحة، وإنك بحكم الاستاذ
الخبير، والمعمار الكريم لهذه المصنوعات العابدة الساجدة.

ويعضي الاستاذ متحدثاً عن قوة الإيمان:

إن الإيمان نورٌ وهو قوة أيضاً، نعم فالإنسان الذي يظفر بالإيمان الحقيقي يستطيع أن يتحدّى الكائنات ويزيح عن كاهله أعباء الحياة، مستنداً الى قوة إيمانه، فيبحر على سفينة الحياة في خضم أمواج الأحداث العاتية، بكمال الأمان والسلام قائلاً: "توكلت على الله"، لأنه يسلم تلك الأحداث الحياتية الرهيبة، وتلك الأعباء الثقيلة أمانة الى يد القدرة للتقدير المطلق، ويقطع بذلك جسر حياته مطمئن البال، وفي سهولة وراحة حتى يصل الى البرزخ ويستريح.. ومن ثمَّ يرتفع من هناك طائراً الى الجنة للدخول الى السعادة الأبدية هناك.

أما اذا ترك الإنسان التوكل، فلا يمكنه أن يتمتع بالقاء أعباء الحياة عن كاهله الضعيف، بل ستجذبه الدنيا الى أسفل سافلين، فالإيمان اذن يقتضي التوحيد، والتوحيد يقود الى التسليم والتسليم يحقق التوكل والتوكل يسهل الطريق الى سعادة الدارين.

ولا تظنن أن التوكل هو رفض الأسباب وردّها كلياً، وإنما هو عبارة عن العلم بأن الأسباب ما هي إلاّ حجب يد القدرة فينبغي رعايتها ومداراتها، أما التشبث بها، أو الأخذ بها، فهو نوع من الدعاء الفعلي ويجب اعتباره هكذا، ومن ثمَّ فطلب المسببات وترقب النتائج لا يكون إلاّ من الحق سبحانه وتعالى. وإن المنّة والثناء لا ترجع إلاّ اليه وحده".

البلبل

"نعرض هنا إحدى روائع "النورسي" الأدبية التي ترقى
به إلى مصاف الأدباء الإسلاميين الكبار، فهو في هذه
القطعة يرتفع إلى القمة التي ارتفع إليها شاعر الصوفية
الأكبر مولانا جلال الدين الرومي".

أيها البلبلُ الغريد.. يا ملك اللحن والغناء.. يا صنّاجة الطير وقيثارة
الغاب.. تَعَرَّ يا عاشق الأزهار.. ففي صوتك الشجيّ ظمأ الطير كلها إلى
جمال الحياة وأفراح الوجود...

أنتَ رسول الأطيّار، وسفيرها السامي إلى "الزهرة" ملكة النبات وأميرة
الحقول والبساتين والغابات لتبثها - باسم كل ذي جناحين - رسائل الود
والعشق والمحبة.. وتعلن لها - بلسان الطيور - الشكر والإمتنان لمملكة النبات
على ما تهديه من أرزاق وأقوات لضيوف الرحمن على هذه الأرض.. تنتقل
من فنن إلى فنن، وتطير من زهرة إلى أخرى جذلان منتشياً، وتنظر بعين
الشكر إلى هذه الأرزاق المسوقة لأبناء جنسك، وهذه الأقوات المهداة من
خزائن الرحمة الألهية إلى الأفواه الجائعة، والمعدات الخاوية، فيستخفك الفرح،
ويهزك الكرم الإلهي العميم فتصفق بجناحيك الصغيرين، وتطلق باسم كل
طير وحيوان أصوات الترحيب والتهليل، وترسل ألحان الحمد والشكر
والثناء..

وَتَعْمُرُ زَهْرَتَكَ بِفَيْضِ حَبِّكَ، وَمُذَابِ عَشْقِكَ، وَيتساقبُ وَجْدُكَ كَأَندَاءِ
السحرِ فوقَ وَجهِهِ هوَ أَلطْفُ الوجوهِ وأرقها... وتنسابُ قُبُلَاتُ فؤادِكَ على
ثغرِ هوَ أشهى الثغورِ وأعذبها.. وتدلُّفُ إلى محارِبِ الطَّهْرِ والنقاءِ حيث
العذارى من أزاهيرِ الروضِ وقد غدونَ شفاهاً مَسْبِحةً، وقلوباً ولهى ذاكِرةً
فَتُلَمِّمُ من فوقِ الشفاهِ تسايحُهُنَّ، وتجمعُ من بينِ الضلوعِ ذِكْرَهُنَّ، ثم
تمضي بصوتِكَ العذبِ الحنونِ تسبِّحُ عن كلِّ زهرةٍ وتذكرُ بلسانِ كلِّ وردةٍ
على عتبةِ مُسَقَمِ الأرزاقِ، ومالكِ الملكِ.. وعند بابِ الرحيمِ ذي الجلالِ
والإكرامِ.

هذا بعض ما نَسْتَشِئُهُ من أَلحانِكَ - أيها البليل العزيز - وبعض ما
نُحَدِّثُكَ من تغاريدِكَ.. وربِّما أنت تقولُ أشياءً أُخرى لا نرقى إلى فهمها،
وتودعُ أذنَ الكونِ رسائلَ لا ندركُ كُنْهها، ولا نعلمُ سرَّها.. وربِّما أنت
نفسكُ لا تفهمُ مقاصدَ ما تُؤدِّيه، ولا تدركُ مغازيَ ما تفعله، ولكنك -
رغم ذلك - سعيدٌ بعملكُ، مبهجٌ بواجبك.. أما الملائكةُ والروحانيون
المبشوثون في أرجاءِ الكونِ، فإنهم أقدرُ مِنَّا ومنكُ على فهمِ ما تقولُ، وعلى
إدراكِ ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلَكَ، وينقلون أحاديثَكَ إلى الله
سبحانه وتعالى.

فجهلكُ يا بلبلي العزيز - إن كنتَ جاهلاً - بهبذه الغاياتِ والمقاصدِ لا
يعني عدمَ وجودها، فأنت كالساعةِ تشيرُ إلى الزمنِ، وتعلِّمنا الوقتَ ولكنها
لا تعلمُ هي ما تفعل..

فاعتَصِرْ لذاذاتِ عملِكَ من جمالِ الأزاهيرِ، وتناولِ أذواقَ قَلْبِكَ وروحَكَ
من أحاديثِ الوردِ، وقمائلهنَّ على الغصونِ، وأبثِّثْ ما شئتَ من أحزانِ ِ

بين أيديهنّ، فنغماتك مهما بدت، حزينَةً شجيَّةً فهي ليست شكواى
وآلاماً بقدر ما هي شكر وثناء وحمدٌ لعطايا الرحمن وآلائه.

ولا يذهبنّ بك الوهم -أيها الإنسان- فتحسبُ أن "البلابل" هي لعالم
الطيور وحدها، وأن أنواعاً أخرى من مخلوقات الله لا تعرفُ مَينَ يسبِّح
باسمها، ويرفع آيات الشكر والحمد لبارئها، فلكل صنفٍ ونوع بلبله الخاص
به، وحتى العناكب والنمل والنحل لها بلابلها التي تلحن تسايحها، وتغرّد
أشواقها ومواجيدها، وهي بالوقت نفسه لها هداياها التي تحصل عليها من
خلال عملها، من المتع الذوقية والجمالية التي تدفعها للجدّ في أداء واجبها
في خدمة الصنعة الرّبّانية، مثلها في ذلك مثل القبطان الذي يقود سفينةً
سلطانيةً في عرض البحار، فإنه زيادةً على المرتب الذي يتقاضاه من خزانة
الدولة، فهو يستمتع ويلتذ بما يشاهد من مناظر جمالية تعرض له أثناء إبحاره
وتطوافه بين الضفاف والشواطئ.

وهكذا فلكل نوع من أنواع الكائنات بلبله الذي يلتقط من مجاميع
النوع الذي يمثله ألطفَ حسّيّاته، وأرقّ مشاعره، وأعذب مواجيده ثم يغرد
بها ويشدو، ويسجعُ ويُنشد، فما من أذنٍ في هذا العالم وما من سمعٍ في هذا
الكون إلاّ ويلتقط ما يناسبه ويلذه من هذه الألحان والتغريد من أصغر
الحيوانات الى أكبرها.. وقسمٌ من هذه -البلابل- ليلية التغريد، فهي تُنشِئُ
قصائدها في دواوين الليل الساجي، فتتحرك بهذا النشيد في هدوات الليالي
مكونوات القلوب، ومشاعر الأرواح، تماماً كما يفعل الأقطاب والمرشون
في تحريك الذاكرين، وتنشيط المتكاسلين من الدراويش والمريدين في حلقات
الذكر.

وعندئذٍ يبدأ الجميع - كلُّ بلغته الخاصة وعلى قدر حاله - بذكر الله سبحانه وتعالى والتوجه إليه بالشكر والمحبة والتعظيم والخشوع.

إذن فكل نوع من أنواع الموجودات - وحتى الأفلاك والنجوم - لها رئيسها الذي يقود حلقة الذكر فيها، وبلبلها الذي يلحنُ في عتمة الفضاء الواسع أنوارها ويغرد أضواءها.. ولكن، أتدرون مَنْ هو بلبل البشرية وعندليئها، وصاحب مواجيدها واشواقها، وحاملُ آلامها وآمالها، والهاتفُ بصوت عقلها وقلبها...؟

إنَّه أفضل بلابل الكون وأشرفها.. وأعذبها صوتاً وأعلاها نداءً وأرقها مشاعر وألطفها حساً... وهو ألمع بلابل البشرية من الأنبياء والمرسلين نوراً، وأتمهم ذكراً، وأعظمهم شكراً وأكملهم ماهيةً وأجملهم وأبهاهم صورةً.. ذلك الذي كلَّ الكون بستانه.. وكل الوجود زهرته.. وكل الموجودات أغصانه.. وكل البشرية أوراذه.. والأرض والسموات.. روضه باعث الأشواق الى الله.. وحادي القلوب والأرواح الى بارئها.. المغرد بالقرآن، والصدّاح بآيات الله محمد بن عبد الله.

الانسان الكامل

في داخل كل إنسان صوت يدعو للارتقاء في مراقبي الكمال، وهاتف يهتف به للتصعيد في مدارج البطولات النفسية، والارتفاع فوق ضغوط الهبوط، والتسامي على الضعف البشري الذي يشدّ الإنسان بقوة الى عجلة النقائص، ويجذبه الى الزوايا الضيقة المعتمة من الطينة البشرية الأولى. ورغم ذلك فإن تجربة الإرتقاء هذه قد تتعرض للكثير من المخاطر في عالم يموج بالفتن والمغريات، ويضطرب بالنقائص والآثام.

لذا فقد حثّ الإسلام "المؤمن" على مجاهدة النفس، والانتباه جيداً الى المنزلقات وحافات السقوط التي قد تعترض طريقه، واعتبر ذلك جهاداً أكبر لا تقل أهميته وخطورته عن مجاهدة الأعداء والخصوم، لأن الانتصار على "النفس" وامتلاك ناصيتها هو أولى مراحل الانتصار على الأعداء.

ومع ذلك فقلّما يستطيع "الفرد المؤمن" بطاقاته وحدها أن يستكمل عناصر البطولة الإيمانية ويستوفي كل أصولها وشروطها، فقد يتعثر هنا وهناك، وقد يسقط مرة ويقوم أخرى، فهو في حاجة دائمة الى "الكل" الذي يقيل عثرته، ويسدّد خلله، ويسند ظهره، ويرفعه معه عندما يحس بالانهايار ويشعر بالتهايوي، ولذلك اعتبر الإسلام "المجتمع الإيماني" جسداً واحداً، وكياناً موحداً حيث يدخل "الواحد" في "الكل" يرتفع بارتفاعه، ويتهاوى بتهايويه، ويصبح "الكل" في "الواحد" يمدّه بقوته ويمنحه من

عافيته، ويحقق له ما يعجز عن تحقيقه بمفرده، ويصل معه الى العظمة
الإيمانية التي يطمح إليها كل مؤمن. طوال حياته.

فالأنبياء من لدن آدم **ج** حتى يوم محمد **ق**، وإن كانوا أفراداً في
المجتمعات - مهما كبر هذا المجتمع أو صغر - إلا إنهم يحملون من كليات
الكمال الإيماني ما يسع المجتمع كله فهم ليسوا أفراداً لأن كل واحد منهم
يستجمع في ذاته توق البشرية وأشواقها الى العظمة الإيمانية، والقمم العالية
للحق والخير والجمال.

وحتى عندما يغيب "النبي" يظل دائم الحضور برسالته، وتظل رسالته هي
"الكل" في المؤمن الواحد، ويظل "المؤمن" هو الواحد الذي اندغم في
"الكل"، ويبقى المجتمع الإيماني هو "الواحد" بالنسبة الى "النبي" و "الكل"
بالنسبة الى "الفرد المؤمن" فالمجتمع الإيماني - بهذا الاعتبار- هو الإنسان
المعنوي الكامل الذي يستوفي الفرد من خلاله حالاته النفسية، ويستكمل في
ذاته الكبيرة - ما يتعذر عليه- بمجهوده الفردي من فضائل، لأن هذا المجتمع
كما يقول "النورسي": -جسد واحد وذات موحدة فكما أنه لا تحاسد بين
اليدين، ولا تباغض بين العينين ولا يبغض اللسان حق الأذن، ولا يتحسس
القلب عيب الروح، وإنما يكمل كل منها نقص الآخر ويستره ويعينه على
حاجته وتحقيق أربه.. وإلا انطفأت حياة الجسد الإنساني وغادرت الروح
وأصابه التمزق والانحلال....

وكما أنه لا حسد بين تروس المعمل الواحد ودواليبه، ولا يتقدم بعضها
على الآخر، ولا يتحكم أحدهما بالآخر ولا يشبط أحد همة الآخر، أو يثنيه
عن سعيه وشوقه الى العمل، إنما يعاون كل منها الآخر بكل ما عنده من

طاقة وقابلية موجهاً حركات التروس والدواليب الى الغاية النهائية، فيسير الجميع الى ما خلقوا له، بالتساند التام والاتفاق الكامل.

فلو وقع تداخل أو اختلاط في العمل أو تحكم -ولو بمقدار ذرة- فإن المعمل سيختل ويقف عن العمل، فكذلك -أفراد المجتمع الإيماني- الذين هم أجزاء وأعضاء لشخص معنوي جدير بأن يطلق عليه اسم "الانسان الكامل" وهؤلاء الأفراد بمثابة التروس والدواليب لمعمل ينتج السعادة الأبدية في حياة خالدة، وهم خدام عاملون في سفينة ربّانية تسير بهذا المجتمع الى ساحل السلامة.

وحكمة سر الإخلاص والتساند بين أفراد المجتمع تظهر واضحة في المثال الآتي:

إنّ مجتمعاً متضامناً مكوناً من عشرة أشخاص، فإن كل فرد فيه يمكنه ان يرى بعيون سائر إخوانه، ويسمع بأذانهم، أي كلاً منهم له من القوة المعنوية وكأنه ينظر بعشرين عيناً ويفكر بعشرة عقول، ويسمع بعشرين أذن، ويعمل بعشرين يد.

وحتى حينما يرتفع الفرد في هذا المجتمع التضامني الى قمة "الشهادة" فإنه يرتفع اليها دون خوف ولا وجل ولا تردد، لأن الموت لا يسلب منه إلاّ روحاً واحدة فقط، ولكنه يظلّ في أرواح إخوانه الآخرين، فيلقى الموت مبتسماً ولسان حاله يقول: لتسلم أرواحي الآخري، ولتبق معافاة فإنها تدم لي حياة معنوية في تجارب الأحياء من إخواني وأنا أعيش بتلك الأرواح وأخلد فيها....

محمد ق و الكون

أيهما أسبق حضوراً إلى العقل، وأسرع حلولاً في التصور والخيال، الغاية؟ أم الوسيلة؟.. وهل الغاية تلد الوسيلة، وتحفز حضورها، أم الوسيلة هي التي تستولد الغاية وتمنحها روح التمكّن والتحقّق؟

وهل يمكن للوسيلة أن تعقل -مسبقاً- القصد والهدف، أم أن القصد والهدف هما اللذان يختاران وسيلة تحقيقهما؟.

التجربة الإنسانية والمشاهدة الميدانية، ومنطق الحياة، تعلمنا كلها أن الغايات هي الأساس والأصل وأن الوسائل تبع لها، دائرة معها حيث تدور وسائرة معها حيث تسير.

وتظل "الوسيلة" عدماً لا وجود له حتى تأتي "الغاية" وتمنحها الحياة والوجود، فإذا انعدمت "الغاية" واختفت، انعدمت معها "الوسيلة" واختفت أيضاً، فهي أي "الوسيلة" توجد لوجودها وتشرف وتعظم بشرفها وعظمتها.

والله وحده قادر على تحقيق ما يريد من اهداف ومقاصد من غير اللجوء إلى الوسائل، إلا أنّه -جل شأنه- شاء أن يرسي قواعد الأكوان والعوالم والمصالح البشرية على محور "الحكمة" لا "القدرة" وأن يبينها على أعمدة الأسباب والمسببات، والوسائل والغايات.

والإنسان لكونه غاية الغايات، فهو أسبق في سلسلة الخلق -إن صحّ التعبير- من السموات والأرض، فقد أنست البشرية بالخطاب الإلهي:

﴿...أَلَسِبَتْ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ب (سورة الأعراف؛ 172) وهي بعد في عالم الذر، والعوالم والأكوان من حولها في عمى الهباء قبل أن تشرق بنور الله. فالإنسان "العابد" كما يصرح القرآن الكريم: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾ (سورة الذاريات؛ 56) هو الغاية الأساس الذي سُخِرَتْ له السموات والأرض، وأصبحت العوالم والأكوان وسيلته إلى الارتقاء في سلم العبودية الخالصة لله.

فلولا "الإنسان الغاية" لظلمت السموات والأرض عدماً معدوماً لا تنال شرف الخلق والوجود.

ويوم القيامة - يوم يختفي "الإنسان الغاية" - وتقوم قيامته، يختلّ معه الكون، وتصطفق السموات والأرض ويحلّ بها الدمار والعدم، وتختفي باختفاء "الغاية" التي وجدت من أجلها وارتبطت بها.

وأجدر من يمثل البشرية بصدق عبوديته لله، وإخلاص قلبه لبارئه، والذي خُلِقَ الكون من أجله هو محمد صلى الله عليه وسلم، فما سجد سجدةً إلاّ واستجمع فيها كل سجود البشرية، وما تضرع ضراعةً إلاّ واستحضر فيها كل ضراعات البشر، وما دعا دعاءً إلاّ واستذكر فيه كلّ أشواق الكائنات ومحبتّها ومواجيدها.

ويوم شاء الله أن يكرم "بني الإنسان" ويريهم ملكوت السموات والأرض، اختار ممثلهم وإمامهم محمداً صلى الله عليه وسلم، ليعرج به إلى السموات العُلى عند سدرة المنتهى ويطوف في أرجاء الملكوت حتى وصل "قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ" فإذا الأكوان تشخص ببصرها إليه، وتنفو بأفئدتها

نحوه، وهي تحيا بحياته، وتتنفس بأنفاسه وتفكر بعقله، وتأنس بأنسه، وتتخلق بأخلاقه، وتجد في رسالته العصمة من الانفلات والضياع وفي قرآنه الحصن من الانهيار والجنون.

يقول "النورسي":

نعم، كما أن الحياة هي خلاصة مترشحة من هذا الكون، والشعور والحسّ هما خلاصة مترشحة من الحياة، والعقل خلاصة مترشحة من الشعور والحسّ، والروح هو جوهر الحياة الخالص الصافي، وهو ذاتها الثابتة المستقلّة.

كذلك الحياة المحمدية **ق** -المادية والمعنوية- هي خلاصة الخلاصة المترشحة من الحياة ومن روح الكون.

والرسالة المحمدية هي أيضاً أصفى خلاصة للكون، مترشحة من حسّ الكون وشعوره وعقله، بل إنّ حياة محمد **ق** -المادية والمعنوية- هي شعور لشعور الكون، ونور له، والوحي القرآني -بشهادة حقائقه الحيوية- هو روح لحياة الكون، وعقل لشعوره.. نعم.. نعم.. نعم..

فإذا ما غاب نور الرسالة المحمدية وغادر الكون، مات الكون، وتوفيت الكائنات. وإذا ما رُفِعَ القرآن، وفارق الكون جُحْنَ جنونه، وفقدت الكرة الأرضية صوابها وزال عقلها، واصطدمت هامتها الفاقدة للعقل بإحدى سيارات الفضاء، وقامت القيامة..!

الكلمة القرآنية

في "الكلمة القرآنية" تطالعنا ينابيع غزيرة من المعاني، وتبهرننا دُرر حبيبة من الأفكار والحكم وتسحرنا رياض خضراء، وحدائق غنياء من أزاهير الحياة والوجود.

وحين نضع أناملنا على نبض "الكلمة القرآنية" نلمس في صدى نبضها نبضات الكون ومُحسُّ في توهجها الأرض والسماء، ونبصر في ضوئها أضواء الشموس والأقمار، ونشاهد في تألقها تألق النجوم والكواكب وهي تعطينا من هذا كله على قدر عقولنا، ورهافة حسنا، وعمق نظرتنا، وشمول معرفتنا.

فكُلِّمًا كَنِيًّا أقدر على الغوص، وأكثر سيراً للأغوار، وأوسع استشرافاً للأفاق والأمداء، زادتنا -الكلمة القرآنية- عطاءً، وفتحت أمامنا الكثير من مغاليق أسرارها، ومخابئ كنوزها. وما توحيه كلمة -أي كلمة- من معاني وافكار، ومشاعر وأحاسيس، في ديوان شاعر، أو كتاب ناثر ليست سواء مع ما توحيه الكلمة نفسها عندما ترد في كتاب الله.

ففي كتاب الله تأخذ "الكلمة" معاني أعمق وأوسع، وتحتلّ من النفس الإنسانية مساحات أعظم وأشمل، وذلك لكونها تتحول في "كتاب الله" إلى كيان حيّ يمجج بتلك الحياة المرتبطة بالأزل والأبد، هذا الأبد "غير الزماني" الذي تصبّ فيه أفكار الماضي والحاضر والمستقبل.

"الكلمة" تحيا في أجواء الآية، وتتفاعل معها أخذاً وعطاءً، والآية ترتع في ربيع السورة وتستروح في ظلها، وتنهل من نبعها، وتقبس من نورها،

والسورة تهطل من روح القرآن ومعانيه مضمخةً بنوره وعطره، والقرآن كلام الله الحيّ الذي يستمد وجوده وحياته من وجود "واجب الوجود" ومن حياة "الحيّ" الذي لا يموت، فلا غرو - وهذا شأن القرآن - أن يقال: إن القرآن يفسّر بعضه بعضاً، ويضئ بعضه بعضاً.

فكلام القرآن يتمخض في حسّ "النورسي" وفي وجدانه عن عالم غريب جميل من الصور والأخيلة التي تأخذ طريقها إلى قنوات حسّيه وشعوره، وسرعان ما يتناولها شعوره المرهف وذوقه المصقّى وفهمه الشمولي ليشيد منها صروحاً شامخة مبتكرة في أدب القرآن، وأسلوب تعامله مع "الكلمة" ومنهج عرضه وطريقة مخاطبته للإنسان. ويسرنا أن نعرض هنا بعضاً مما كتبه "النورسي" نصاً في الكلمة القرآنية فيما تناوله من تفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

يقول النورسي: وحتى أنّ "العين" التي معناها الواحد: البصر أو المنهل يطلق على الشمس أيضاً، بالرنو إلى أنّ العالم العلوي ينظر إلى العالم السفلي بها. أو أنّ ماء الحياة الذي هو الضياء يسيل من ذلك المنبع في الجبل الأبيض المشرف على الكائنات. وقس على ذلك³.

أَمَّا نَصُّمُ بَكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (سورة البقرة؛ 18).

فاعلهم: أنّ الإنسان إذا وقع في مثل هذا البلاء - قد يتسلّى ويأمل ويرجو النجاة من جهات أربع مترتبة:

³. الجبل الأبيض يقصد به الشمس التي تبدو كجبل أبيض في وسط المساء.

فأولاً: يرجو أن يسمع أصوات تناجي الناس في القرى المجاورة أو من عابري السبيل، حتى إذا طلب العون والمدد أمده، ولما كانت الليلة ساكنة بكماء، استوى هو و "الأصم" فقال: "صُمُّ" لقطع هذا الرجاء.

وثانياً: يأمل أنه إن نادى أو استغاث، يحتمل أن يسمع أحد فيغيثه، ولما كانت الليلة صمّاء، كان ذو اللسان والأبكم سواء فقال: "بُكْمٌ" لإلقامهم الحجر بقطع هذ الرجاء أيضاً.

وثالثاً: يأمل الخلاص برؤية علامة أو نار أو نير⁴

يشير إلى هدف القصد، ولما كانت الليلة دامسة رمداء عبوساً عمياء، كان ذو البصر والأعمى واحداً فقال: "عَمِي" لإطفاء هذا الأمل أيضاً.

رابعاً: لا يبقى له إلا أن يجتهد في الرجوع، ولما أحاطت به الظلمة، كان كمن دخل في وحلٍ باختياره وامتنع عليه الخروج...!

نعم، كم من أمر تذهب إليه باختيارك، ثم يُسَلَبُ عنك الاختيار في الرجوع عنه تُحَلِّيهِ أنت، ولا يخليك هو.

فقال تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ لسدّ هذا الباب عليهم وقطع آخر الحبل الذي يستمسكون به. فسقطوا في ظلمات اليأس، والتوحش، والسكون والخوف!.

وأما آية: ﴿وَيُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِّنْ جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ﴾ (سورة الشورى؛ 43)، فاعلم: أن الجمود على الظاهر في هذه الآية مع توقد الاستعارة فيها، جمود بارد وخمود ظاهر.

⁴. أي جسم منير أو نير.

إذ كما تتضمن (قوارير من فضة) إستعارة بديعة، كذلك تحوي: (من جبالٍ فيها من برد) على إستعارة بديعة عجيبة مستملحة.

فكما أن كؤوس الجنة لم تكن من الزجاج ولا من الفضة، بل في شفافية الزجاج، وبياض الفضة، ومن حيث أن الزجاج لا تكون من الفضة لتخالف النوعين، أشار إلى الإستعارة بذكر "من" بالإضافة، كذلك (من جبال فيها من برد) متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر إلى السامع:

وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين "العالم العلوي" وتَشَبُّه كل "العالم السفلي" وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجوِّ في لبس الصور من يد القدرة.

كأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبيض من حُلل الثلج والبرد في الشتاء، والمتعممة بها في الربيع ثم ترينت في الصيف ببساتينها المتلونة، فاظهت في نظر الحكمة -بانقلاباتها- "معجزة القدرة الإلهية" قابلها جوِّ السماء محاكياً لها، مسابقاً معها لإظهار "معجزة العظمة الإلهية" فبرز متبرقعاً ومتعمماً بالسحاب المتقطع جبالياً، وأوطاداً وأودية، والمتلونة بألوان مختلفة مصورةً لبساتين الأرض، ملوحاً ذلك الجوُّ بأجلى دلائل العظمة وأجلها.

فبناءً على هذه الرؤية والمشابهة والتوهم الخيالي استحسن تشبيه السحاب -ولا سيما الصيفي منه- بالجبال، والسفن، والبساتين، والأودية، وقافلة الإبل -كما تسمع من العرب في كلامهم- فيخيل إلى نظر البلاغة: أتيه قطعات السحاب الصيفي سيّارةً وسيّاحة في الجوِّ، وكأنّ الرعد راعيها

وحاديها، كلما هزّ عصا برقه على رؤوسهم في البحر المحيط الهوائي إهتزت تلك القطعات وارْتَجَبَتْ وتراءتْ جبلاً صادفت الحشر، أو سفناً تلعب بها يد العاصفة أو بساتين ترجحها من تحتها الزلزلة، أو قافلة شردت من هجوم قُطَاعِ الطرق، مع ذلك يسبرون ويبحرون بأمر الخالق.

ولما ناداها الرعد - كالبوق المعروف في المعسكرات - بـ "حيّ على الاجتماع والاتحاد" تسارعوا من منازلهم مهطعين إلى راعيهم فَيُحْشِرُونَ سحاباً، ثم بعد إيفاء الوظيفة حقها وتلقّي الأمر بالإستراحة، يطيرُ كلُّ إلى وكره.

فبناءً على هذه المناسبة الخيالية، وعلى المجاورة بين السحاب والجبال:

إذ الجبل - بعامل البرودة والرطوبة - يتظاهر ويتشكّل السحاب عليه بمقداره، ويلبس لباسه، وعلى وجود الأخوة بينهما ومبادلة الصور واللباس لكليهما في كثير من مواضع القرآن ومصافحتها في منازل التنزيل كمحاورتهما وتعانقهما في كثير من سطور صحيفة الأرض في كتاب العالم. فترى السحاب متوضّعاً على الجبل ويصير الجبل كأنه مرسى لسفن السحاب ترسو عليه، أو مجلس تتشاور عليه، أو وكر تطير إليه، استحقاً - بحكم المجاورة - في نظر البلاغة أن يتبادلا ويتسعيرا لوازمهما، فيعبر عن "السحاب" بـ "الجبل" مع تناسي التشبيه.

فإذا عرفت ما سمعت من المناسبات،

ف (ينزل من السماء) أي من جهة السماء

(من جبال فيها) أي من سحاب كالجبال،

(من برد) أي من مطر كالبرد في لونه ورطوبته وبرودته.

المغيب

25 رمضان 1379هـ

كالشمس - أنت - ما تنفك تسقى الأرض من ينابيع نورها وترضع العالم من لبن أضوائها، حتى إذا ما بلغت ذروة عطائها النوري، وتألفت متوهجة في كبد السماء، وطفقت تستقطر في أفواه الكائنات الظامئة أفويق الظهيرة الندية، وتستعصر في العيون الوسنى أضواء التفتح والصحو والإنبعاث.. إذا بما تميل - على مهل - إلى الزوال وتنحدر رويداً رويداً نحو أفق الغروب ثم لا تلبث أن تتوارى وتحتجب مخلفة وراءها عتمة المساء الحزين.

تألفت - يا أسد الإيمان - كالشمس، وأضأت كما تضيء، وأثرت كما تنير، وأعطيت العالم "رسائل النور" شمساً مشرقة في سماء العقول والقلوب والأرواح، تحي ببرد أنفاسها موات العقيدة، وتنهض بأشواقها الإيمان القعيد، وتلهب ببروقها اليقين الممود، وتحرك بنوئها سواكن الآمال، وتبذيب بحرارتها جوامد الهمم، وتأخذ بيد الفكر الكسيح، وتهتف بمشلول الروح والوجدان:

أن فم معاني.. وانحضر مبرأ النفس من كل داء.. ومسيح القلب من كل الجروح والأوجاع.. تُبْرِى هل آنَ لزلزال الفكر في رأسك، ولبر كان المعارف المتفجر في كيانك، وقد ألقى بكل أنقاله الإيمانية وقذف بكل جواهره القرآنية، أن يهدأ ويستقر ويصمت ويسكن..؟!

وتمضي حياتك المثخنة بأوصاب الكفاح، وجراحات الجهاد نحو شوق
المغيب، وتدلّف إلى عالم الأبدية الساجية بمدوء الطمأنينة وصمت الوداعة
والسكينة..؟

على حافة الأبدية تقف بجسمك المريض المتعب، وقد هدته آلام المرض
وآدته أوجاع السنين وبشيخوختك الوضياءة الوقور وبقلبك المثقل بموم
الإسلام والإيمان، وبروحك المعذب المكلم، تشارف أبواب الآخرة.. ومن
هناك تطل على العالم الذي تعرف دروبه لكثرة ما كتبت عنه.. وتكاد
تعرف طريقك إلى جنانه ورياضه لكثرة ما عشتها بكل ذرات دمك، ولكثرة
ما وصفتها وتحدثت عنها فيما ألقت وكتبت..

وفي غمرة مرضك -ورغم ما كنت تحسبه من آلام وأوجاع- ينبعث
صوتك عميقاً ندياً مضمخاً بعبير الأبدية، مخاطباً تلامذتك الحزاني وقد
لفتهم سحابات من الحزن والآسى والإشفاق:

أموت أنا.. أمضي أنا.. ولكن.. إعلموا أن عصر الإيمان الجديد قد
بدأ.. وعصر القرآن قد أطل.. وأنّ "رسائل النور" ستمضي تشقّ لهذا
العصر طرقة، وتمهد له سبلة.. فافرحوا يا إخوتي.. وابتهجوا يا أبنائي.. فعيد
الإيمان قد أطلّ، وفجر القرآن قد تبلج وأشرق..

وتغشاك غاشية تغيب فيها ساعة عن وعيك. وتمضي عن الدنيا ملفعا
بغموض روحي مثير، وتسري في صحبة ذلك الهاتف الغيبي الحبيب الذي
يهدد رحيلك، ويحدو ركبك إلى شواطئ الخلود:

إمض سعيد.. إمض.. إمض إلى "أورفة".. ليست "أميرداغ" أرضك التي
تموت فيها.. في "أورفة" تموت. ومنها تجوز إلى عوالم الطهر والخير والحق

والجمال. هذه العوالم المشتاقة إليك شوقك إليها.. والمتلهفة للقياك تلهفك عليها. والتي عرّفتك وأحبّبتك كما عرفتتها وأحببتها.

وتفريق وتفتح عينك وتغمغم في صوت خفيض:

- أورفة..؟ حسناً. إلى "أورفة" نذهب..!

وتفجأ مرافقيك من حولك:

- هيا.. خذوني إلى "أورفة"..

- الآن..؟ وفي هذه الساعة المتأخرة من الليل..؟

- نعم الآن.. لا بدّ من الرحيل..

ويحارّ تلامذتك، ويفغرون أفواههم شديداً، ويظنون فيك ما يمكن أن يظنوه في مريض قد صرعه المرض وعَلَبته الحمى..

ولكن صوتك يزداد وضوحاً، ونبرته تدل على أنّك في كامل قواك العقلية، وأنك تعني ما تقول فعلاً.

- لماذا التردد؟ قلت لكم: خذوني إلى "أورفة" الآن..

وإزاء هذا الإصرار ينصاع تلامذتك لرغبتك، ويسارعون إلى استئجار سيارة تقلكم معاً إلى "أورفة"..

ويحملونك إلى السيارة برفقٍ وهدوء وهم يحاذرون أن يسببوا لك أيّ ألم أو أذى.. وتمضون إلى "أورفة".. ولكن "المخبر" الموكل له مهمة مراقبتك وترصد حركاتك، يسارع لإعلام أجهزة "الأمن" بمغادرتك لـ"أميرداغ" في سيارة أجرة..

وصفها وشكلها كذا.. وتحمل الرقم كذا..

ويقوم رجال "الأمن" ويقعدون لهذا الخبر الصاعق. وسرعان ما تهتزّ اسلاك الهواتف في طول البلاد وعرضها وهي تبلغ النبا الخطير إلى المعنيين

هنا وهناك .. وتتطاير البرقيات إلى كل مكان: شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً..
لقد غادر "النورسي" "أميرداغ" إلى جهة مجهولة.. انتبهوا.. تيقظوا.. افتحوا
عيونكم جيداً.. راقبوا الطرق.. سدّوا المنافذ..

وإذا بالدولة بكل قواها وسلطانها وعظمتها ترتعد فرائصها اليوم أمام
القوة الروحية الخارقة التي يمتلكها هذا الشيخ الأعزل العجوز الفاني، وهو
يقف على عتبة الآخرة منتظراً الإذن بالدخول بين ساعة وأخرى..

وتصل إلى "أورفة" في جوّ عاصف حزين ممطرٍ.. "أورفة" أرضك التي
كُتِبَ عليك منذ الأزل أن تموت فيها، وتُوارى فيها التراب.. وفيها معراج
روحك، ونافذة نفسك التي تَنَسَّلَ منها إلى ربها راضية مرضيةً..

وتنزل مع ثلاثة من طلبتك في فندق "إيبك بالاس"، وما يكاد خبر
وصولك يطرُقُ أسماع رجال الشرطة والأمن حتى يسارعوا إلى تطويق الفندق
من جميع جهاته، ويقترح أحد المسؤولين غرفتك ويلقاه على ضوء المصباح
الخافت الكئيب، وفوق سرير في إحدى زوايا الغرفة، شبح إنسان قد مصَّبَتْهُ
الأوجاع وأنخلته الآلام وهدمته الأمراض.. ويتوقف لحظةً مبهوتاً..

أهذا هو الرجل الذي أثار هذه العاصفة من الرعب في صفوف
المسؤولين.. أهذا الكيان المتهدّم يمكن أن يشكل خطراً على الدولة وأمنها
كما يقول رجال الحكومة.. صحيح أن جبينه الوضياء مازال يشرقُ بتلك
المهابة المحبّبة.. وأن بريق عينيه ينبئ عن قوة خفية مجهولة غامضة.. ولكنه
مع ذلك فهو قعيد الشيخوخة والمرض، وليس بإمكانه -حتى ولو قصد

ذلك- أن يسبب أيّة متاعب لأي إنسان، فضلاً عن الدولة وحكومتها ورجالها.

ولكن الأوامر هي الأوامر، ولا بدّ أن ينفذها بغضّ النظر عن كل الإعتبارات الخلقية والإنسانية..

- لا بدّ من أن تترك "أورفة" وتغادر إلى "إسبارطة" فوراً.. عندي أمر صريح من وزير الداخلية بذلك..

وتنفرج شفثاك عن إبتسامة إشفاق حزينة وتقول:

- اسمع يا بُنيّ.. لقد جئتُ إلى هنا لأموت.. وأنا أنتظر ساعتني بني لحظة وأخرى.. ولا يمكنني أن اغادر هذا المكان مهما كانت الأسباب.. ألا ترى ما أنا عليه من ضعف ومرض..

وتلتفتُ إلى طلبتك وتقول لهم:

إشرحوا لهذا السيد حالي وضعفي. وأوضحوا له ما أعانيه من متاعب وأوجاع..

ويُستدعى الطلبة المرافقون لأستاذهم إلى مركز الشرطة، ويدور هذا الحوار:

- لماذا قدمتم إلى هنا؟ وماذا تبغون؟ ومن أذنّ لكم بالقدوم إلى "أورفة"؟

- نحن هنا نزولاً عند رغبة أستاذنا.. ولا ندري ماذا يبغي من وراء حضورنا إلى هذه المدينة.

- حسناً، قولوا لأستاذكم بأنّ هناك أوامر مشدّدة من السلطات العليا.. وعليكم أن تتركوا "أورفة" حالاً، وتعودوا إلى "إسبارطة"..

- ولكنه في أشد حالات المرض.. وصحته لا تتحمل مشقة سفر
يستغرق أربعاً وعشرين ساعة أخرى..

- مهما كانت حالة أستاذكم ينبغي أن تتركوا "أورفة" فوراً. تلك هي
أوامر السيد الوزير..

- لم نعود مراجعة أستاذنا في القرارات التي يتخذها.. فإذا أحببتهم
فأعرضوا عليه الأمر بنفسكم، وإذا أمرنا بالمغادرة فسنغادر..

ويغتاظ "مدير الأمن" لهذا الجواب ويقول بحدة:
- ماذا تعنون؟ ألا تستطيعون أن تعرضوا عليه أمراً كهذا؟
- نعم، لا نستطيع.

- إذا كنتم مرتبطين بأستاذكم هذا الإرتباط، وتنفذون ما يأمركم به،
فأنا أيضاً مرتبط برؤسائي.. وأنا أمهلكم ساعتين فقط لترك هذه المدينة
والعودة إلى "إسبارط"..
ويسارع بعض طلبة النور إلى المستشفى الحكومي في المدينة، ويرجون
كبير الأطباء أن يصحبهم إلى "الفندق" للإطلاع بنفسه على الحالة
الصحية المتدهورة لأستاذهم.

ويتم الكشف على الرجل المريض، ويستحصلون تقريراً طبياً رسمياً منه،
بأن حالة "الأستاذ" المرضية لا تسمح له بمغادرة الفراش، وأن أي مجهود
مهما كان نوعه يمكن أن يؤدي بحياته..

وينتشر بين الناس خبر وجود "الأستاذ" في مدينتهم، ويتلقون بغضب
واستهجان موقف السلطات المزري منه، ويشدهون لهذه المعاملة القاسية
الخالية من مشاعر الرحمة والإنسانية والذوق.

ويتجمع حول الفندق العشرات منهم، ثم المئات، ثم الألوف، في تظاهرة احتجاجية تعبر عن مشاعر السخط والاستنكار، ويرقون إلى الجهات المسؤولة في "أنقرة" يشجبون تصرفات أجهزة الأمن اللإنسانية إزاء "الأستاذ" الشيخ وهو في أشد حالات الضعف والمرض..

ويثور "مدير الأمن" ويبلغ به الغضب مبلغاً عظيماً وهو يرى تجمع الناس الإستنكاري حول "الفندق" فيقرر مقابلة "الأستاذ" بنفسه وتبليغه بالزوم مغادرته لـ "أورفة" ..

ويصل "مدير الأمن" إلى الفندق محاطاً بثلة من رجاله، ويطلب مقابلة "الأستاذ" فيؤذن له بالدخول إلى غرفته فيدخل وتقع عينيه على شبح إنسان متهدم مستلق على سرير متواضع وهو يعاني من حمى شديدة، ولكنه مع ذلك يسرع فيقول:

- يؤسفني أن أبلغك بأن الأوامر قطعية، ولا مجال لمناقشتها.. ولا بدّ من أن تترك المدينة وتغادر إلى "إسبارطة" ..

وترسم على شفطيك الذابلتين إبتسامتك الوداعة الصافية وترد بصوت خفيض متعب:

- أنا الآن في الدقائق الأخيرة من عمري.. ولا أقوى على مغادرة "أورفة" سأموت هنا عن قريب.. إنّ واجبك "كمدير أمن" هو ان توفر لي "الأمن والأمان" لكي أموت هادئاً مطمئناً.. وأن تهيم لرجل غريب مثلي وهو في الرمق الأخير مستلزمات الغسل والتجهيز والدفن..

ويحسن "مدير الأمن" برعدة تسري في أوصال جسمه، ويتصبب عرقاً، ويشعر بالحجل والتصاغر أمام هذه القمة الإنسية العظيمة التي ما زالت

تشيع فيما حولها المهابة والإجلال والإحترام، رغم ما يتغشاها من عتمة المغيب الوشيك..

وينسحب من الغرفة مع رجاله مطرق الرأس في صمت وهدوء..
ويعضي الليل بطيئاً ثقیلاً الخُطى.. والجسد الداوي يئن ويتهاوى لحظةً بعد لحظة تحت وطأة الحمى اللاهبة وهي تبخر بسعيرها ماء حياته قطرة قطرة. وتنفخ بزفيرها لتطفئ ذبالة روحه، وبقايا رعشات من سراج قلبه، حتى إذا ما بلغت الحرارة أوجها، ووصلت مداها، تسللت الحمى من الجسد المسجى وتركته على حافة الموت هامداً يستريح بعض الوقت قبل أن يتوقف القلب إلى الأبد، ويصعد الروح إلى العالم الذي هبط منه أول مرة..

ويتقدم واحد من طلبته، ويتلمس براحة يده جسم أستاذه وجبينه فيحمد الله تعالى على أن حُمباه قد زالت، وأن حرارته قد انخفضت، فيسبل اللحاف ويغطيه برفق، ثم يعالج موقد الغرفة فيشعله طلباً للدفع في هذه الليلة القارسة البرد...

وينبلج فجر الخامس والعشرين من رمضان سنة 1379 هـ (الثالث والعشرين من آذار 1960) وينتظر طلبته أن يبدو من "الأستاذ" أية حركة تتم عن استيقاظه، ورغبته في القيام إلى الصلاة. ولكن "الأستاذ" ظل غارقاً في سبات عميق في وقت ما كان يعرف النوم فيه طيلة حياته... ويقترب الطلبة من أستاذهم ويتحسسون الجسد المتثلج ويعرفون أن "أستاذهم" قد مضى ورحل إلى ذلك العالم الذي لا أحد يرجع منه أبداً.. يخيم على جو "الفندق" سحابة خشوع صامت، وتتنزل في جنباته أنداء حزنٍ ملتاغ،

وتترددُ بين غرفه ودهاليزه أصدااء صراخٍ روحي مكبوت، وتفجّع كوني مهموس، ويتنابُ النزلاء أحاسيس مبهمه غامضة ويشعرون فجأة "وكأن قلوبهم تغوص في بركة من الدم والدموع، ويجارون.. ويهجسون.. ثم يطلّون من أبواب غرفهم ويسأل بعضهم بعضاً:

- ماذا حدث؟ وأي أمرٍ جَلَلٍ قد وَقَعَ؟

ويهمس بعضهم لبعض:

- لقد مات الشيخ المظلوم.. وارتفعت روحه إلى بائها..

وعندما يغادر "مدير الفندق" غرفة الرجل المسجّى يلتقيه في الدهليز "مدير الأمن" ويدور بينهما هذا الكلام المقتضب:

- ماذا حدث؟.. ما أخبار الرجل المريض؟

- لقد مات..

- أحقاً مات؟ أمتأكد أنت من موته؟

- لقد مات وانتهى كل شيء..

وينسحب "مدير الأمن" ويغادر "الفندق" صامتاً مطرقاً..

سرعان ما ينتشر خبر الوفاة في مدن "تركيا" وقراها وأريافها، ويتوافد إلى "أورفة" عشرات الألوف من كل مكان ليشاركوا في تشييع جثمان الرجل المجاهد إلى مثواه..

وتبكي السماء.. وتنهلّ دموعها، وتنوح الأرض، ويتحبب الشجر والمدر.. وبين قلوب الناس الوالهة وعيونهم الباكية، يمضي الموكب الحزين إلى "أولو جامع" في "أورفة" وهناك ينزل جثمان الرجل القبر.. ويُورى التراب..

أنت -يارجل الإيمان- مأساة المجد، ومجد المأساة.. عبقرى الآسى
وأسى العبقرية.. همومك هموم أمية ضائعة في متهات الزمن.. وآلامك آلام
شعوب تواقفة للدين والإيمان.. وأحزانك سليله الحزن الحمدي العظيم ق
والساري في روح الكون، والماسك بزمامه أن يستخفه طرب الدل، ونشوة
الخلق، فيطير صوابه، ويفقد توازنه.. فلا غرو أن يظل الشجى والأسى
مهماز الكون وعقال الوجود، ويظل زاد رجال الإيمان وقوتهم على طريق
التبليغ والجهاد.

ولكن.. هل انتهت في القبر آلامك..؟ هل أرحيت واسترحت وأنت
تحت أطباق الثرى..؟ هل آن لجسدك المتعب المنهوك أن يلمس في تراب
الأرض برد الأمن والأمان الذي لم يعرفه طوال حياته...؟

فيذا لم يكن بوسع السادة الدينويين أن يتركوك تستريح في دنياهم،
أفليس من حقيك وأنت فيما وراء زمانهم ومكانهم أن ينعم جسدك المضنى
بالطمأنينة والسكينة والأمن..؟

لا.. فإن روح الانتقام ما زالت تعوي عواء مخيفا مرعبا وتطالب بالمزيد
من الأذى لرجل الإيمان الثاوي في قبره.. وأن سعير الكراهية يغري ذئابيه
البشرية إلى أن تحرق أمن القبور، وتصخب على سكينه اللحد، وتعبث
بحرمة الموتى وقدسيتها الموت..

مُخيف أنت حياً، ومخيف أنت ميتاً.. مهيب أنت فوق الثرى، ومهيب
أنت تحته.. زلزال في الحياة.. وزلزال بعد الممات..

بالأمس كان بريق عينيك الطافحتين بالنور والحياة يشل حركة الأعداء،

ويملاً قلوبهم جزعاً هلعاً.. واليوم أيضاً -رغم ركامات التراب- يخشونك كما يخشون أسد الغاب وقد أخذته سنة من النوم..

هنا في هذا القبر يثوي "النورسي" شاهد الإيمان، وخادم القرآن وحامل لواء الإسلام.. وجموع المؤمنين من كلِّ حدبٍ وصوبٍ تزور وتستذكر وترثي وتستعبر، ويقف على القبر الآلاف المؤلفه من الناس وهم يجدون في صاحب القبر القدوة والمثل ويلمسون في سيرته وأفكاره النور والأمل.. فما العمل..؟! فما العمل..!؟!

ولم تكد تنقضي خمسة أشهر على وفاة الرجل حتى يخيم ليل أسود كثيف، وتتجمع في سماء "أورفة" قطعٌ من سواد بهيم، يحمل في طياته ظلمات بشعة من ظلم الإنسان وقساوة قلبه وهمجية حقده..

وتحت جناح هذا الليل يتسلل إلى القبر الحزين واحدٌ من جنرالات الجيش مع ثلة من جنده.. وتحت إشراف أحد الأطباء العسكريين، وبحضور شقيقه الشيخ "عبد المجيد" المفجوع بأخيه - وقد أُجبرَ على توقيع طلب رسمي بنقل رفات أخيه إلى "إسبارطة" -.. يُفتح القبر، ويستخرج الجثمان، ثم يوضع في تابوت جديد، ويحمله الجنود إلى طائرة عسكرية كانت الإنتظار، فتقلِّبه إلى "أفيون" ومنه يُنقل التابوت بسيارة إسعاف إلى "إسبارطة"، وهناك يُدفن تحت أستار الليل في مكان مجهول، تحيط به الوحشة والغربة والغموض..

رحم الله "النورسي" .. كم عانى الغربة والوحشة والألم والعذاب، حيناً.. وميتاً...

أديب إبراهيم الدباغ

فهرس

5.....	المقدمة.
9.....	توطئة.
9.....	رياض النور.

الفصل الأول

19.....	صورتان.
21.....	في زحمة الأحداث.
22.....	عاشق القمم.
23.....	الرجولة المبكرة.
25.....	الخلود و الفناء.
27.....	النظرية و التطبيق.
28.....	ايجابية العقيدة.
30.....	نظرات مستقبلية.
33.....	آلام الغربية.
34.....	مخاض العاصفة.
36.....	البطولة المصنوعة.
40.....	رجل القدر.
42.....	الأسطورة تحكم.
44.....	مصائد الرجال.
46.....	الموت و الميلاد.

الفصل الثاني

49	عين كونية.....
54	البريد السرمدى.....
58	بسالة الحكمة.....
61	البركان الصامت.....
64	الله أكبر.....
67	بللا تصوخ.....
73	الوجود فكرة.....
79	الممكن وغير الممكن.....
85	الحرية و جلادوها.....
89	كيمياء الحياة.....
98	المحاكمة.....

الفصل الثالث

111	المعنى والمغزى.....
124	الشجرة.....

الفصل الرابع

133	قراءات في فكر النورسى.....
133	أسماء وحروف.....
140	القوة و الضعف.....
144	البلبل.....
148	الانسان الكامل.....

151.....	محمد ق و الكون.....
154.....	الكلمة القرآنية.....
159.....	المغيب.....

أنت إزاء مفكر مبدع خصب في إبداعاته، غزير في
جدة معانيه، وسيع في ثرائه الوجداني وعطائه
الروحي. ومبلغ علمي أنه لم يسبقه أحد- في العصر
الحديث- فيما تناوله من "القضايا الإيمانية الكبرى"
ولا سيما الغيبية منها كـ"الآخرة والحشر، والثواب
والعقاب، والجنة والنار" فقد أوتي من سعة التصور
والخيال وقوة المنطق والبرهان، في مناقشة هذه
الغيبات التي حار فيها فحول العلماء وفتاحل
المفكرين ما يثير الدهشة ويبعث على الدهول، وهو
يضع "غيبات ما رواء العقل" بين يديك بكل يسر
وسهولة ويوقفها تحت بصر عقلك، وعين قلبك، حتى
لتكاد تلمسها لمس اليد، وتراها رأي العين، فلا يسع
معها أي معاند أو مكابر- إن كان منصفاً- إلا الإيمان
بها، والتصديق بوقوعها. كما أخبرت بها الأديان
وبشرّ بها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم.

ISBN 975-6438-50-9



9 799756 438502